بالأمس كنتُ معكِ

الطبعة الأولى

1441هـ

2020م

اسم الكتاب: بالأمس كنت معك

التأليف: أحمد التلاوي

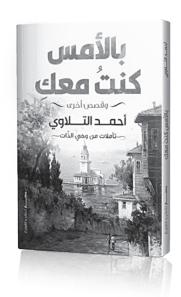
عدد الصفحات: 232 صفحة

مقاس الكتاب: 14x20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2019/ 19710

الترقيم الدولي: 978-977-000-000-0



تصميم الغلاف: محمد دربالة

التنسيق الداخلي: أحمد البسيوني



دار مسار للنشر والتوزيع

01020439639

massar.pub1@gmail.com

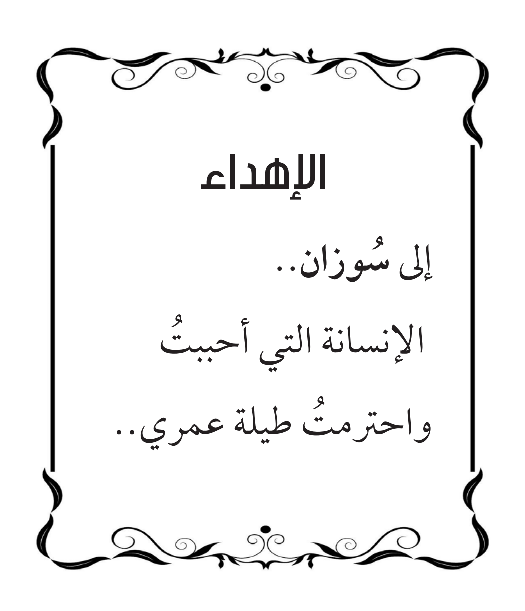
ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

أحمد التلاوي

بالأمس كنتُ معكِ

تأملات مِن وحي الذَّات

مجموعة قصصية



الإهداء

إلى سُوزان..

الإنسانة التي أحببتُ

واحترمتُ طيلة عمري..



بادئة..!!

في حياة كلٍّ منَّا مواقف، وأحداث.. يلتقي فيها شخوصًا، ويقع له فيها ما يشكِّل شخصيته، ويبدِّل حالَه، بل وما يُغيِّرُ تصوراته عن الحياة بالكامل..

وكلٌّ منَّا له طريقته في التفاعل مع هذه الأحداث، وهذه الشخوص، وتوثيقها.. ومن بين أهم هذه الطرائق، الكتابة، التي هي أهم صور التعبير والإبداع الإنساني..

والكتابة هي أهم ما يمكن للمرء أن يعبِّر بها عن ذاته، والأداة الأهم التي يمكن له من خلالها أن يقدِّم للآخرين الإجابة عن سؤال الهوية.. مَن هو، وما هي تصوراته، وحتى محتوى ضميره!

وإن أسمى وأثمن ما في حياتنا هي الكلمات.. فالكلمات ليست كيانات صمَّاء، أو مجازات، أو مجرد أصوات تتردد في فضاء افتراضي، إنما هي في جوهرها، أكثر الأشياء التي نملك، ذات أصلٍ ووجود وأثر.. إنها واجهة عرض أو أداة تعكس أمورًا قائمة على أرض الواقع..

الكلمات هي أداةٌ تخاطُبنا وتواصلنا الإنساني، مهما كان وسيط النقل.. أداةٌ نعبِّر بها عن مشاعرنا ونصف ما نقوم به.. كلماتنا قد تغيِّر الكثير فيما حولنا، وفيمَن حولنا..



خُلِقْنا بكلمة، ونُبعَث بكلمة.. أعمالنا تُسْطَر وتُدوَّن بكلمات.. الزواج؛ هذه العلاقة المُقدَّسة، تتم بكلمات يتبادلها طرفان، وتنبتُّ بكلمات أيضًا..

علاقاتنا تنشأ وتنتهي بكلمات، وفي العلاقات الإنسانية، جوهر الوجود والتطور والحضارة الإنسانية.. كلماتنا إنما هي واقعٌ وأحداث مؤجلة، تصنعها وتوجهها.. تقول لشخص: افعل كذا بالطريقة كذا، وتصفها له. هذا فعل مؤثر.. واقع تم. بناءً على كلمات.. إن الكلمات أشياء أعمق بكثير مما نظن..

وهذه المجموعة القصصية التي تقرؤنها، هي محاولة من جانب صاحبها في هذا الاتجاه؛ إلى التعبير عن ذاته.. إلى توثيق بعض التجارب التي مرَّ بها، حتى ولو كان بعضها في صورة رمزية.. كيف أصبح بهذه الصورة من المفاهيم والاهتمامات.. كيف تكوَّنت شخصيته، ورسمتها بعض هذه التجارب والشخصيات التي قابلها منذ أن كان بعد صغيرًا..

إن حياتنا لو عشنا فيها إنسانيتنا، لتستحق منَّا أن نقوم بتدوينها، وتوثيقها؛ لأن آفة الإنسان النسيان، ولو أن بعض ما يمرُّ بنا في حياتنا من أناس ومواقف وأحداث، مما لا يمكن نسياته؛ حيث يطبع علينا وعلى نفوسنا وأرواحنا من الأثر مما لا يمكن محوه..

أحمد التلاوي

القاهرة في:

الأحد ٢٥ أغسطس ٢٠١٩م



إشراقة

أرسل لها ذات يوم خطابًا، وكان مطوَّلاً، وربما أصابها بالملل، لكنه آثر الاحتفاظ به في أوراقه حتى النهاية، وعثروا عليه بعد ذلك؛ كان من الواضح أنه يجيب فيه على بعض خواطرها وأسئلتها عما كان من أمره نحوها، وعما كان من أمرها عنده. وبعد مقدمات طويلة؛ نجده قد طَفِق يقول:

".. ثم دعيني أيا صاحبتي، أن أتكلم عنكِ قليلاً، وعن تجربتي معكِ. إنني سوف أقول لكِ كلامًا غريبًا لكنه حقيقة واقعة، وأمرٌ على سبيل اليقين قد وَقَرَ في ضميري، وهو ربما يفسِّرُ لكِ الكثير من الأمور، فيما أكتب وأقول لك عن السيدة.. أنا لا أحبك كامرأة، أنا أرى الإنسان الحقيقي فيكِ.. بداخلك.. أرى ما تقوله العينان عن الروح التي من دونها نعود طينًا وماء.. مجرد طين وماء. أنتِ كامرأة، مادة، متجسدة؛ لا تعنيني، ولا حق لي فيها أصلاً.. لكن أنتِ الإنسانة التي ترى عيناها الجمال وتقف أمامه منبهرة بكل براءة وسذاجة الأطفال؛ هي تلك التي أحب وأهوى..

وهذا يا حبيبتي، هو الذي يفسر لك أيضًا عندما قلت لكِ ذات لحظة حزن؛ أنه مهما تباعدنا؛ فلن تختلف الأمور بالنسبة لي؛ لأن روحك معي، وقبضتُ منها قبضةً لنفسي؛ سوف تبقى معي للأبد..



وهذا هو الذي ربطني بكِ أكثر بعد ظهورك الثاني في حياتي. أنتِ "الحقيقية" - لو جاز لي التعبير - بدت أكثر وأكثر، وبدا وكأن الزمن يتراجع بك لنقطة الخلق الأول. الروح الخالصة التي هي من روح الله تعالى نفسه. فأي قُدْسٍ يا سيدتي أنت عليه؟!..

فلا تظلمين نفسك وتصفينها بأنك "امرأة"، مجرد "امرأة"، أيتها الروح الإنسانية النقية المتسامية التي ترقى بالآخرين..

أجمل أمنياتي أن أرى الدنيا بعينيكِ اللتَيْن لا تريا إلا الجمال والطُّهْر والنقاء، وأن أشعر بالعالم من خلال روحكِ؛ حيث الفطرة والعفوية والبراءة.. لست أدري كيف أنتِ، ولا كيف جئتِ على هذا النحو.. امرأة ذكية قوية، وطفلة بريئة لكن ماكرة.. ولا تتعارضان، وإنما يمتزجان عندك بصرورة فريدة لا يمكن أن تتكرر كثيرًا في العُمُر الواحد..

لا زلت أتذكر ذلك اليوم المشؤوم الذي انتزعت نفسك مني انتزاعًا. منذ ذلك اليوم؛ لم تعد حياتي كما كانت عليه. تبدَّلَتْ بالكامل.. علمت بحق معنى العجز، ومعنى الفشل.. لكنكِ وذكراكِ، صرتِ مدينتي التي لم أغادرها أبدًا..

ربما كان هناك الكثير مما ليس من حقي أن أقول أو أن أعبِّر، لكني حاولت - قدر طاقة استطاعة قلمي وقدرتي على التعبير - أن ألخص لكِ الإجابة على أسئلتك الصعبة، مثل: لماذا أحببتك، ولماذا أخلصتُ لكِ طيلة سنوات

طويلة نسيتُ أن أعُدَّها، أما لماذا أراكِ هكذا؛ فإجابة هذا السؤال ليس عندي للأسف.. ربما هو إحساس.. مُدْرَكٌ لشيء خفي غير قابل للتعبير عنه؟!.. لا أدري.. حقًّا لا أدري"..

ثم كان مختتم كلامه عبارة عن رسوم ركيكة ترسم اسمها، وتحاكي وجهها، وخصوصًا عينَيْها الآسرتَيْن وتصفيفة شعرها الكلاسيكية القديمة، والتي كانت ذات يوم مفتاحه لدخول عالمها الفسيح.. أو ما أسماه في اوراقه الخاصة بـ"عالم التيه الجميل".. التيه الذي عاش فيه عمره لم يخرج منه أبدًا!..

القاهرة في:

الأحد ٣٠ سبتمبر ٢٠١٨م





مُدوَّنة اللقاء

كلما جئت أكتب عن أُمِّي؛ وجدتني أكتبُ عنكِ.. عندما رأيتكِ بالأمس القريب؛ أحببت سَمْت البهاء في وجهك البرئ.. أحببت الانطباع الذي منحتهُ له نصف إغماضة العينَيْن اتقاءً لوهج الشمس.. كأن النيل كان يحتفل في الجوار..

كنتِ مبهرةً بهيةً كالعادة.. كان لكِ ألقٌ وبريق.. كنتِ كالشمس نفسها.. بل كنتِ أجمل من الشمس.. أكثر بهاءً من الشمس التي كانت ساطعة في ذلكم اليوم.. عندما ناولتكِ بعض الأشياء؛ رأيت أصابع الطفلة التي لا تزال تملكينها..

لكنكِ كنتِ مرهقةً.. كنت أتمنى لو غاب عنَّا الكون المادي من حولنا، واظلتنا غيمة رؤوم، واحتويتكِ لكي أربِّتَ على الكتفَيْن تربيتةً تزيل بعض ألم ومتاعب نضالاتكِ في هذه الدنيا..

ما أنتِ يا فتاتي؟!.. وقبل أن تتساءلين عن مغزى سؤالي؛ أقول إن لكِ طبائع كثيرة.. طفلة.. مراهِقة.. ملكة آسرةٌ آمرة.. ثم وجدتُ في لقائنا الأخير، المزيد والمزيد.. تلقائية وبساطة غير معتادتَيْن.. روحٌ وريحانٌ..



لكني أختزلكِ في سمةٍ واحدةٍ.. صفتك الأهم عندي، بجانب أنكِ كنتِ قصتي الأولى؛ أنكِ أمي.. بالحق أشعر أنني قد خرجت من رحمكِ في زمنٍ ما.. خفقان القلب ومتاعبه قد ذهبت بمجرد أن طالع النظر الوجه الحبيبَ البرئ، وسماع اللهفة والعفوية والعذوبة في نبرات الصوت الذي لا يزال طفلاً..

عندما احتوتكِ عيناَيْ في الوهلة الأولى؛ كانت لحظة بالدنيا.. إن لكِ مفعول السحر.. وعندما استدرتُ واستدرتِ للرحيل؛ كان كأن الزمن قد انتهى وتوقف، وتأهبت الروح عندي للمغيب.

القاهرة في:

الخميس ١١ أبريل ٢٠١٩م



"بيت الجَدَّة"..

(حكاية قصيرة تحكيها لنا طفلة اسمها "بسمة")

كانت "بسمة" طفلةً جميلةً، وقد اعتادت في الإجازة الصيفية أن تختلف مع والدتها وأختَيْها، الكبرى "سماء"، والصغيرة، "سلمى"، إلى بيت الجَدَّة الجميل لقضاء بعض الأيام من أيام الإجازة؛ حيث كانت تلعب مع أطفال خالها القريبين في العمر منها.. كانوا يلعبون معًا كل الألعاب التي يلعبها الأطفال في مثل هذه السِّن، ومثل هذه الأمكنة؛ حيث يقبع بيت الجَدَّة في تلك الضاحية التي لا تزال تتمتع بسمتِ القرية، بالرغم من معالم المدنية القبيحة التي غزتها في السنوات الأخيرة..

كانت المنطقة التي يقع فيها بيت الجَدَّة يسمح بكل ألوان المتعة البصرية واللهو البرئ لمجموعة القطط والأرانب التي تلهو مع بعضها البعض، غافية عن حقيقة الدنيا.. وربما كان هذا هو أجمل ما في حياة الأطفال.. البراءة والطُّهْر، وعدم إدراك أدران الدنيا لنفوسهم البريئة التي تدنو من صنوف الملائكة..



كانت لا تزال هناك بعض مساحات الأخضر الواسعة، وأطفال كُثُر، وأطعمة الجَدَّة الشهية، وفاكهتها المثمرة، والأهم حبها الوافر وحنانها على أطفال الابن والابنة.. الابنة التي كانت بدورها لا تزال تهوى هذا المكان الجميل وتعشقه.. تحب هدوءه.. تحب أشياء كثيرة تفتقدها في حياتها الأخرى.. مثل أحضان أمها الرؤوم، وتربيتاتها على كتفَيْها وهدهداتها التي تعود معها طفلة لا تختلف كثيرًا عن زهراتها الصغيرة اللواتي تأتي أصوات ضحكاتهنَّ من حديقة الدار الخلفية، مانحةً إياها مشاعر الطمأنينة والسلام النفسي..

كانت تتأمل وجهها القديم القسيم وهو لا يزال صبيًّا باسماً في ملامح "بسمة" وأختَيْها.. قبل أن تتأمل وجهها هي في المرآة القديمة المعلَّقة في ردهة بيت الأم.. تعقد خصلات الشعر الأسود فوق رأسها في ذات التصفيفة الكلاسيكية القديمة التي كانت تهواها.. لا تزالي جميلةً يا فتاة.. لا شيء سوى بعض غبار الحياة الذي يمكن إزالته بسهولة.. فقط ببضع دقائق في أحضان الأم البراح.. يا بسيم العين يا قمري.. أحدهم وصفها بها قبل سنوات.. وصفٌ دقيق فعلاً!..

كل شيء في بيت الجَدَّة جميل.. كل شيء يعود بنا أطفالاً كما كُنَّا.. كما نرغب.. رائحة الطعام الشهي المنبعث من المطبخ، ومشهد الشمس الكاسفة في أوقات الأصيل، وأكواب الشاي التي تكتسب في هذا المكان طعماً آخر.. طعم وأصالة الماضي الجميل..



في الليل، تأتي "بسمة" وأختاها لكي تجلسا جلسة الأرانب الصغيرة إلى جوار الكبار؛ حيث تتربع الأم إلى جوار الجَدَّة على تلك الأريكة التي لا تزال تذكر كل خيطٍ فيه.. تنظر من حولها إلى أرجاء المكان، وتغيب عن الواقع، وتختفي الموجودات من حولها، فلا ترى سوى صور الماضي.. هناك كانت تلعب.. هنا كانت تصفف ضفائرها.. هنا كانت تجلس تتأمل.. وتحلُم.. يختلط صوت الأطفال من حولها بأصوات الماضي؛ فلا تعرف أين هي بالضبط.. تشعر بها الأم الكبيرة؛ فتضمها، وتهدهدها، فتغيب عن الوعي.. أمنةً نُعاس.. هي في أحضان الأم لا مراء، ولا بأس من لحظات ضعف نخلع فيها الدروع ونرتاح من عناء الحرب التي نخوضها..

تجلس الزهرات الصغيرة على الأرض مع بعض العرائس أو ألعاب التركيب البلاستيكية الصغيرة.. بعض كراسات الرسم والأقلام الرصاص والألوان.. لا بأس من مشاجرات الإخوة التي تُكسِب الأمسيةَ براءةً ولطفًا.. هذه أخذتْ كراستي.. هذه كسرتْ أقلامي.. أريد غيرها يا أمي.. حسنٌ.. الصغيرة "سلمى" لا تكف عن الحركة والضحك وإضفاء البهجة على المكان، بينما الكبيرة، "سماء"، تحاول أن تظهر بمظهر الفتاة الناضجة، قبل أن تنسى كل شيء، وتعود طفلة كما هي!..

ثم يوغل الليل؛ فتنطفئ الانوار، وينام الجميع في سلام.. في بيت الجدة؛ ينسى الجميع كل شيء عن العالم الخارجي الموحِش القاسي.. موحِشٌ برغم

ازدحامه؛ حيث إن الوَحْشَة صنو غياب الإنسانية، والناس في الخارج كُثْرٌ، ولكنهم من دون روح.. من دون إنسانية..

لذلك بيت الجَدَّة جميل.. بيت الجَدَّة رائع؛ لأن كل شيء فيه، لا يزال ينبض بالحياة.. لهذا جميعنَّ يحب بيت الجَدَّة..

القاهرة في:

الأحد ٢٨ يوليو ٢٠١٩م



الفتاة القَدَر

دوَّن في صفحات مذكراته ما كان من أمره بعد أن استمع إلى صوتها للمرة الأولى منذ سنين بعيدة:

".. اليوم كان هناك حدث جميل؛ حيث استمعت وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة، إلى صوتها. لست أدري كيف أَصِفُ هذا الموقف؛ فلا يمكن وصفه إلا بالبكاء، أو بالموسيقى؛ حيث لغةٌ أرقى من حروف اللغة لوصف وقع نبراتها على النفس.. صفوٌ وهدوء ونقاء، أمانٌ وعطف، كبرياءٌ وانكسار..

يزيد من وقْع الأمر على نفسي؛ ما أقرنته نفسي في مخيلتي بين صورتها القديمة التي لديَّ، وبين صوتها. ذات فتاة الماضي ومراهِقَته الجميلة. لم تكبُر لحظة.. قلت لها ذلك لما رأيت صورها الحديثة، ولم تصدقني..

لكن صوتها كونٌ آخر.. إنها أغنية.. كلمات تصاحبها موسيقى.. يعكس فرحًا، وخجل طفلة بريئة تحتفل معك بأول مرَّة تتناول فيها "غَزَل البنات" معك في شارع الحي الفسيح وارف الأشجار.. رفات على أوتار القانون والكمان.. مفاتيح البيانو تعزف مع أجمل أغنيات العالم.. فجر شفَّاف، وغدير رقراق..

لم تكن مجرد كلمات تلك التي تبادلناها في بُرهة الوقت البسيطة التي استغرقها الاتصال؛ بل كان الموقف نقلةً كاملةً في الزمان والمكان. خلتُها أمامي في ذلك الموقف الذي رأيتها فيه للمرة الأخيرة. بكبرياء الذي يخلق من حولها ألف ألف سور، ونظرة عينُيْها الآسرتَيْن.. تمنيت لحظتها لو ضممتها برفق، وأنْ أنحني على كفَّيْها؛ أقبلهما وأَبكي عليهما، ولو انتهت بِيَ الحياة بعدها.. كذلك؛ عبر أثير الهاتف.. تمنيت، وتمنيت.. وتمنيت.. لكنَها تظل مجرَّد أمنيات المستحيل!..

لا أدري لماذا أشعر بشيء غير يسير من الحزن في صوتها.. معاناة. لكنها على ما أعرف عنها من بسالة؛ معاناة المحاربة التي خاضت معركة الحياة بشرف وقوة..

خاطبتها، وقلت لها؛ إن هذه الكلمات البسيطة، وموسيقى الصوت الكارمينا؛ لهي تفوق كل ما تصورته عنكِ. الأهم، أنها قد منحتك المزيد من الأبعاد.. التجسيد.. المزيد من كونك حقيقة في حياتي.. أجمل واقع وأرق حقيقة..

إن ما يختلج الآن في النفس من مشاعر؛ ليفوق الطاقة على الاحتمال، إنها معجزة القدر، وإنه لموقف؛ هو أجمل أحداث العمر..

القاهرة في:

الإثنين ٢٩ أكتوبر ٢٠١٨م

عهود القصيداْ

".. مَثَلُكِ كمَثَلِ أجمل لحن.. مثلُ أجمل حَلْوَيات، في أفخم معارض الكون.. كأجمل زهرة.. كأجمل بسمة.. كأجمل أمسية مع فنجان قهوة وهدوء.. كانت هذه بداية رسالته إليها هذه الليلة، التي طال عليه فيها عهد الظلام والغياب..

كان قد عرض عليها خاطرته الجديدة. قالت له إنها كلماته جميلة، وطلبت منه إكمالها، وعندما جلس يكملها، تنسَّم عطرها الغائب عبر أثير اللحظة، وسجَّل لها بصوته كلمات، ثم طَفِقَ يقول لها:

"هل تعلمين يا سيدة؛ بمَن تذكريني، وتذكرني جلساتنا الجميلة؟!"..

تصورَّها أمامه في هذه اللحظة تسأله لماذا، فأكمل قائلاً:

"إنك تذكريني بأطفال سقراط؛ الذين ألهموه أعظم أفكاره، بعفويتهم وبراءتهم، وبساطة منطقهم.. في طريقة ردك وتلقيكِ للكلمات؛ حيث تتحوَّلين بالنقاش لآفاق جديدة غير مطروقة، وبانبهار وجمال براءة لا أعهدها إلا في ملائكة الله"..



لأجلكِ حبيبتي..

قلتُ القصيداْ..

وطويتُ إليكِ السبيلاْ..

وتمنيت لو نظمتُ لكِ..

من بريقَ النجم عقوداْ..

وزرعت فوق وجه الدنيا..

لأجلكِ.. ربيعًا وزهورًا..

ولكن عندما التقيتكِ..

كان لم يتبقَ عندي من سنين العمر..

إلا القليلاْ..

أ. ت.

❋.❋.❋

.. غلبه الانفعال، فتوقف قليلاً، قبل يعود لدفتره فيكتب، ولكأنه يكلِّمها، ويتوسمها أمامه في هذه اللحظات المقدسة:



"عُود رياض السنباطي غير عادي، وفي "الرباعيات"؛ كان أسطوريًّا.. استمعت إليه وأنا أخاطبك هذا المساء. كان معي بعزفه وبألحانه، ومعي السيدة؛ أغني لها، وأكتب عنها، وأشرب فنجان قهوتي، وأعيش معها براءة أسئلة أطفال سقراط.. إنها أروع لحظات حياتي.. إنها فيوضات حضورك، ولمساتك..

إنك بالضبط مثل هذه الألحان، ومثل هذه الكلمات؛ مشغولة بإتقان، بإحِكَام، وفيها الجمال، كل الجمال..

أيا عزيزتي، إن هذا التماس الروحي أيا صاحبَتي ليَقول الكثير.. ليَقول إننا قد التقينا منذ الخليقة، وإن روحانا قد طافتا معًا حول البيت المعمور قبل بدء التاريخ بزمانٍ طويل.. لأجلكِ فقط أحيا.. لأجلك فقط أكتب القصيدا.. لأجلك فحسب؛ أَبكي.. لأجلكِ أنا هنا؛ أحلُم!"..

ثم أنهى حديثه إليها عبر الورق وأثير الخواطر، بأن جدد لها عهد الوفاء والأخلاص، وبألا يكتب لغيرها من كلماته أيَّ قصيدا!"..

القاهرة في:

الأربعاء ٢٤ أكتوبر ٢٠١٨م



آرايوس!

".. عمَّت الفوضى برَّ البلاد؛ فاجتمع الكهنة لمناقشة هذه المشكلة، وكيف يمكن إنقاذ هذه الحضارة الموشكة على الغرق في فيضان الفوضى هذه المرة..

مشهد أول.. داخلي مع إضاءة جيدة لنيران موقدة في مشاعل على جوانب قاعة فسيحة، بينما ضوء الشمس يتسلل إليها من خلال فتحات في الجدران تشي بدقة هندسية سوف يقوم حسن فتحي بتقليدها بعد ذلك بقرون متطاولة في "القرنة".. ربما في ذات المكان السري الذي اجتمع فيه الكهنة لمناقشة الأمر..

كانت الأجواء شديدة التوتر.. حضارتنا تضيع يا سادة!.. لابد من حلٍّ.. قالها كبيرهم.. طال الجدل، ولا أفكار جديدة، حتى نهض من ركن بعيد أقرب إلى الإظلام، هيكل قديم متداعٍ لكاهن عجوز يبدو وكأنه قد شهد توحيد القطرَيْن.. قال لهم في صوت قويٍّ ثابت برغم تقدمه في السن، قاطعًا عليهم حبل نقاشاتهم: الحل عندي!..

سأله أحدهم: كيف؟!.. قال له الكاهن الجَد كلمة واحدة نزلت عليهم تزلزلهم: "آرايوس"!.. رنَّت الكلمة في عقولهم قبل آذانهم مثل الرصاصة..

"آرايوس".. "آرايوس".. من الذي لا يعرف "الآرايوس".. الرهيبة المخيفة.. ملكة الظلام.. حامية الملوك.. حاملة التاج.. "آرايوس".. لكن؟!.. هل هي حقًّا موجودة؟!.. أجابهم الكاهن: نعم.. موجودة.. ثم هنيهة صمت، قبل أن يكمل: وأنا أعرف مكانها..

انبرى أحدهم يقول، وهو يتقدم في توتر إلى منتصف القاعة: لكن أيها الكاهن.. "آرايوس" خطرة.. للغاية.. قد تقتل مَن يطلقها أصلاً..

في هدوء تحرك الكاهن إلى دائرة النور في منتصف القاعة السرية، جاذبًا خلفه طفلاً صغيرًا واجفًا: سنفعلها أنا وهذا الطفل.. حفيدي.. ثم استدار إليه، وقال له في ثبات: أليس كذلك يا (ناريا)؟!.. لم يرُد الطفل.. فقط هز رأسه علامة الإيجاب.. إن أمه تناديه؛ فلا مجال لرفض النداء..

..*.*.*

مشهد ثانٍ.. داخلي مع ظلام شبه دامس؛ إلا من ضوء شمعة يترقرق على الجدران.. الجدران الصخرية لهذا الكهف الضيق الذي يبدو طبيعيًّا وليس مِن حَفْر الإنسان، في ذلك المكان الذي كتب الله تعالى له أن يظل مجهولاً طيلة قرون عديدة؛ عند البر الغربي لنهر النيل، في مكان ما قرب الأقصر الحالية..

الكاهن يرتجف مع ضوء الشمعة وبجواره يقف الطفل الصغير يمسك في طرف ردائه؛ يرتجف بدوره، وقد خالطهما الصمت والرهبة.. قال الكاهن

لرفيقه الصغير المرتجف رهبةً: الآن يا (ناريا) .. لم يرد الطفل.. فقال له الكاهن: سنموت!.. لم يرد الطفل.. فسأله الكاهن: هل أنت خائف؟!؛ فردَّ الطفل هذه المرة بصوت واهن لكنه ثابت قائلاً أنْ: لا!..

مد الكاهن يده وجذب يد الطفل إليه وورفعا معا الغطاء عن عن مدخل قديم للغاية.. ربما يعود إلى الخلق الأول للأرض.. وعندئذٍ تحرك ذلك الشيء الذي ظل هناك كامنًا أزمنة عديدة.. لقد استيقظت "آرايوس"....!

......

......

بعد ذلك بعقود طويلة؛ جلس (ناريا) العجوز يحكي لأحفاده؛ كيف أنه قد نجا من "آرايوس"، والهول الذي تلا إطلاق "آرايوس" حتى استتبت الأمور في بر البلاد"..

القاهرة في:

الإثنين ٨ يناير ٢٠١٨م



التنورة الزرقاء

كان يومًا يحمل له ذكرى خاصة.. خاصة جدًّا.. كان يومًا له كل مقومات الحزن العميق.. ظل للحظات يتأمَّل نفسه في المرآة الكبيرة في غرفته.. لم يكن يتأمل نفسه بقدر ما كان يتأمل أحداثًا ماضية وقعت في ذات المكان.. تذكر وجوهًا قديمة باشة؛ لكن آخر ما رأى منها الجهامة والحزن والدموع..

دار في المكان يتحسس بقايا الماضي في أركانه.. لم تزل بالفعل هناك الكثير من الآثار لديه.. على الجدران.. فوق الأرفف.. إلا أن أهم هذه الذكريات كان هناك؛ مدفونًا في أعمق دهاليز دولابه.. كان يخبئها كأنه يدفنها.. بعيدًا عن ناظريه.. إلا أنه اعتاد من فترة لأخرى، أن يخرجها من مكانها.. يتأملها قليلاً ويبكي كثيرًا..

بيدٍ مرتجفةٍ أخرج أهم هذه الذكريات.. التنورة الزرقاء..!.. دنا بها من عينيه لكي تملأ المشهد كله في عقله.. تشمم رائحتها بقوة، وكأنه يستعيد رائحتها التي صارت من مكونات حواسه.. إنه يشتاق إليها كثيرًا.. كثيرًا جدًّا.. يشتاقها إلى درجة أنه بات يكرهها.. لا.. هو لا يستطيع أن يكرهها..

هو يكره نفسه لكل هذا العذاب.. يكره نفسه لأنه لم يزل بعد غير قادرٍ لا على الكراهية ولا على النسيان..

لحظات في هذه الحالة وهو يمسك التنورة الزرقاء بين يديه ويشد على أنسجتها بقوة، ويدنيها من وجهه.. لحظات ولم يعد هنا.. بل صار هناك!..

..*.*.*

ارتفعت أصوات الضحكات في غرفة الصالون.. ضحكات بعضها رجولي والآخر أنثوي.. حياة كاملة كانت له في تلك اللحظات.. كانت هي أهم مفرداتها.. اختلس من وجنتها الندية قبلة، بينما يُعدَّان معًا، الشاي والحلوى للضيوف.. معًا.. كانا دائمًا معًا.. ولا يدري ما الذي حدث، ولا أين ذهبت، ولا لماذا ذهبت..!

..*.*.*

تذكر لحظات ليلية؛ كانت تجلس فيها إلى مكتبها لكي تذاكر دروسها.. كانت تحمل في طياتها كل معاني حب المراهقة والشباب.. حب صدمه بينما هو على أعتاب الكهولة؛ ففوجئ به يعود حيًّا من الماضي..

..*.*.*

ولم يزل بعد يتنسمها في التنورة الزرقاء..!

..*.*.*

عاد بذاكرته إلى الوراء أكثر.. إلى المرة الأولى التي رأى فيها الوجه الجميل.. طفلة جميلة ترتدي هذه التنورة الزرقاء بالذات.. كانت كالطفلة في كل شيء!!.. في جمالها وحيائها ورقتها.. كانت أجمل من أي شيء في هذا العالم، ولذلك ضاعت منه!!.. هذه سُنَّة الحياة..

القدر ربط بين التنورة الزرقاء وكل محطات السعادة التي عاشها معها.. أول مرة رآها فيها.. أول مرة سارا فيها معًا وحدهما في زحام القاهرة الذي كان غافلاً عنهما.. أول مرة لمس فيها يدها على كورنيش النيل.. النيل العظيم الذي تغنى لها أمامه بأجمل الأغنيات، وقال لها على شاطئه أروع الكلمات.. وتحسس لأول مرة وجنتها المبتلة بفعل الندى..

كان وجهها الصبوح القمري يملأ عليه الدنيا.. كان يتعمد أن يجلسها على مقعدٍ وثير ويرفع هذا الوجه بين كفَّيه.. يتأمله من دون أية تفاصيل أخرى حوله، حتى أنوثتها؛ كانت تتراجع أمام وجهها الأسطوري.. يضعه بين كفيه ويرفعه؛ فكأنك ترفع أجمل وردات هذا العالم وتتأملها.. يطيل التأمل قبل أن يميل عليها، ويملأ عينيه بوجهها وعينيها، ثم يقطف الشفتَيْن.. في هدوء.. فكأنما له هذا العالم بأكمله..!

كانا في لحظاتهما معًا كطفلَيْن؛ لا يعرفان من الدنيا سوى معاني البراءة والطهر والحب.. كانت عيونهما لا ترى سوى الجمال والندى والنقاء..



كان بجانب التنورة الزرقاء الكثير من الألعاب والأشياء التي تخصها.. بعض عرائسها، وشرائط شعرها.. كان يجد الكثير من الدفء في هذه الأشياء.. دفء ملمس يدها وهي تسير بجواره في شوارع الوطن الحبيب..

بعدما سارت؛ كان يتعمد أن يذهب إلى حيث بيتها القديم.. حيث تنام الملائكة.. لا يدري لماذا سارت.. كل ما يعرفه أنها قد سارت إلى الأبد..

..*.*.*

وتستمر رحلة الذكريات..

..*.*.*

ساعاته معها كان فيها كل السعادة.. ليالي الشتاء التي يقوم فيها يعد لها القهوة التي تحبها لكي تسهر في عملها ودراستها.. كانت تحبه قهوته، ولذلك استغرب أنها سارت.. القهوة تمثل له- من وجهة نظره- عهد الإنسان للإنسان.. لحظات ارتشافها في ظلال الإضاءة الخفيفة في المكان ليلاً.. الهدوء والسكون والقهوة وعيناها.. وموسيقى خفيفة خافتة تدوِّي في خلفية المشهد..!!

هذا المشهد كان بالفعل حقيقيًّا.. كان له.. كل هذه السعادة كانت له.. إلا أنها- نكرر للمرة الألف- رحلت وسارت..!

إلا أنها عندما سارت، كانت رحيمةً به؛ حيث تركت له التنورة الزرقاء وحزمة هذه الذكريات معها..

ولكن؟!.. من قال إنها بهذه الرحمة؟!.. إنها قاسية.. نعم طفلته قاسية كـ.. كالألماس!؛ إذ تركت له كل هذا العذاب..!

نعم هي ألماسة.. في ندرتها وجمالها.. وأيضًا، في قسوتها الرهيبة التي تمزقه في هذه اللحظات المقدسة..

تذكر أيضًا أنها قبل أن ترحل، قد اقتسمت معه بعض الكراسات وعلب الألوان والكتب والأقلام.. طلبت منه عدم شراء نسخ أخرى من الكتب التي أخذتها معها.. المكتبة.. ابننا المشترك الذي لم ننجبه؛ فليكن بيننا للأبد..!

..*.*.*

الفجر؟!.. لقد حلَّ الآن.. أطال السهر مع التنورة الزرقاء..!!.. تركها في مكانها السري السرمدي، وذهب لينام.. وفي تلك الليلة حلم بها كثيرًا.. كثيرًا جدًّا..

القاهرة في:

الجمعة ٢١ مارس ٢٠١٤م





الحادي

كان الضباب يغلف الصباح، ولسعة برد خفيفة تضفي على المشهد الكثير من الانتعاش.. مرج واسع عريض فيه جدول ماء بينما وقفت تلك الطفلة حائرة لا تعرف لنفسها اتجاهًا..

لمحَتْ من بعيد قافلة كبيرة من الدواب والأنعام الضخمة رائعة الجمال، بينما يتقدمها شاب جميل المُحيَّا، يسير ببطء وكأنه يملك كل الوقت، ويغني.. كان صوته عذبًا، ويبدو عليه سيماء الاطمئنان..

اتجهت إليه في لهفة؛ قالت له: أنا تائهة في هذا المكان، وأريد العودة إلى أمي..

قال لها: أنا حادي قافلة لا يوجد فيها بشر، ويجب أن نصل إلى المكان الذي هي ذاهبة إليه..

قالت له وهي تمسك بذراعه في ضراعه: خذني إلى حيث بيتي.. سوف أتأخر على أمي..

هبت النسائم في هذه اللحظات فأزاحت خصلات الشعر الأسود عن جبينها الأبيض الوضاء، وعيناها الجميلتان السوداوان الواسعتان تنظران



إليه في ضراعه، بينما الأبيض الذي الذي ترتديه يروح ويذهب مع الرياح الخفيفة.. لحظات صمت طالت.. ثم قال لها الحادي: ألا تسمعين أولاً غنائي؟!.. ألا ترين المكان الذي نحن سائرين إليه؟!..

قالت له وقد بدأت تحس بالاطمئنان إليه: سيدي.. وهل المكان بعيد؟!..

أمسك بيدها في رفق وهو يقودها إلى جواره ويسيران بجوار القافلة: نعم.. بعيد.. لكن لا تقلق السيدة الكريمة؛ فسوف أسليها بغنائي طوال الطريق..

شاعت في وجهها الجميل بسمة، وقالت له: وهل غناؤك جميل؟!..

قال لها وهو يبتسم: يقولون إنه جميل..

توقفت بغتةً، وقالت له: أين؟!..

قال لها: هناك.. بعيد.. حيث وطني..

قالت له: وطنك؟!..

قال لها: نعم.. وطني..

قالت له: وأين هو وطنك؟!..

قال لها: عند السفح الآخر لهذا الجبل من الجهة الأخرى.. إنه بعيد.. ولكنه هناك.. ولابد أننا ذاهبون إليه..



ثم أشار بسبابته إلى جهة ما.. تطلعت هي بحركة تلقائية إلى حيث يشير.. لا تدري؛ لكن خُيِّل إليها أن الجبل قد انشق عن مشهد جميل لم تميِّزه من هذه المسافة، ولكنه مزيج من الأخضر والأبيض والسماوي الرقيق.. طيور وزهور وأطفال جميلو الوجوه؛ رائعو المنظر كالملائكة.. عالم آخر شعرَتْ أنه مختلف عما تعرف.. وبرغم بُعد المسافة شعرت بنسمات جميلة باردة، لا تُوصَف نعومتها، تهب عليها وتُداعب وجنتَيْها..

ظهر أمامها للمحة قصيرة من الزمن، ثم اختفى فجأة كما ظهر فجأة!.. ثم انتبهت إلى غرابة موقفها، قبل أن تستعيد واقعها..

قالت له: إذًا سنتأخر.. أمي في الانتظار..

قال لها: لا تخافي.. في وطني لا يمر الزمن..

تعجبت منه، وقالت في براءة طفولية محببة للنفس: كيف؟ لا يمر الزمن؟!..

نظر إلى لمى شفتَيْها الجميل، بينما لا يزال التاج الأسود حول رأسها يتحرك بفعل النسيم، ثم قال لها: تعالَيْ وستعرفين..

تطلعت إلى عينَيْه السوداوَيْن الحزينتَيْن، وقالت: ماذا عن العودة؟!..

قال لها وهو يربت على وجنتَيْها: لا تقلقي.. هناك سوف تجدين الجميع..



لم تفهم.. لم تعرف.. لكنها شعرت أنها أصبحت أسيرة له.. لا تدري كيف؛ بينما هي لم تزل لا تعرفه..

قالت له وهي تتأبط ذراعه، وتسير إلى جواره: إذن غنِّ، ولنرَ هل أنت كما يقولون أم لا..

سارا وحيدَيْن مع القافلة وسط المرج عند سفح الجبل الأشم الرمادي، المتوج بالأبيض فوق قمته.. بينما هي تسمع شدوه، وتتساءل.. مَن هو هذا الحادي؟!.. وإلى أين يأخذها؟!.. هذا ما لن تعرفه إلا عندما يصلا مع القافلة..

القاهرة في:

الإثنين ٣ ديسمبر ٢٠١٢م



أشياء صغيرة

هو يعلم تمامًا مدى أجله في هذه الحياة.. هو يعلم أن آخر أنفاسه مرتبط بدقات ساعة الحائط القديمة التي توارثها عن أمه، واختفاء أنفاس الراديو الأسود القديم خاصَّتها، وأن ينكسر آخر فناجين القهوة التي حافظ عليها من أشيائها القديمة منذ زمن بعيد.. في حينها فقط؛ سوف يعرف أن أَجَلَه قد دنا..

هو لا يخشى الدنيا الآن، ولا مخاطرها، ولا شياطينها؛ لأن هذه الأشياء لا تزال بجواره، ويعلم تمامًا أن أجله مرتبط بها؛ فلا يخاف شيئًا..

هذه الأشياء عصية على الكسر.. نجت من عواصف قواصم كثيرة سابقة؛ فلن تذهب لأي سبب يتعلق بالبَلَى. بل سوف تذهب فقط لأن عمره انتهى.. قبله بدقائق فحسب، سوف تذهب، ثم يذهب هو خلفها..

كذلك ينظر هو إلى أشياء أخرى في جعبته، ذات النظرة. ألعابه البلاستيكية والخشبية القديمة.. صندوق الكرات الزجاجية الملونة الصغيرة التي كان يلعب بها، وأخوه في الماضي.. قصصه ذات الأغلفة المهترئة والأوراق المصفرَّة، التي قرأها وهو بعد طفلاً، وصنعت وجدانه، وشكَّلت أفكاره



وانتماءاته.. تذكارات باقية من صنع أنامل حبيبته المراهِقة.. بقايا أقلام ألوان، ورسمة لوردة جميلة.. مناديل ورقية، وزجاجة عطر فارغة.. وأوراق زهرٍ ذبلت بفعل الزمن للأسف..

أشياء كثيرة جميلة.. لو انتهت؛ سينتهي هو معها. لكنه يعلم أنه لن ينتهي طالما بقيت هذه الأشياء..

في الماضي، كانت لديه أسفل شرفة منزلهم القديم، شجرة وارفة، كانت أمه – كذلك – ترى فيها خط العمر.. ماتت عندما قطع الغوغاء هذه الشجرة ذات ليلٍ.. هو كذلك لن ينتهي وهذه الأشياء باقية لديه!"..

القاهرة في:

الخميس ١٠ يناير ٢٠١٩م





أضغاث أحلام في مدينة الغاب!

"..في الحلم يرى الكثير من الأسود.. أسود حقيقية ضخمة، ذات لبدات ضخمة بدورها.. لكنها لم تكن تزأر.. فقط موسيقى صاخبة وضجيج من كل مكان حوله، يرافقها الكثير من الهرج في المكان الذي كان شديد الازدحام..

كانت الأسود تجلس على منصات السيرك العالية. المخيف في الموضوع أنه لا توجد أية أسوار حديدية تفصله عنها. لكنه لم يكن خائفًا..

أصوات طبول عالية تدق.. ألف طبلٍ يدق دقات راقصة ذات وقع عجيب على النفس.. وكان هناك بشر.. الكثير من البشر، وربما هذا أخافه أكثر من وجود الأسود.. منهم من وقف في أماكن متباعدة من بهو السيرك وعلى أطرافه. لم يكونوا ينظرون إليه.. في الواقع لم يكن يبدو وكأن أي أحد يعبأ به..

من هؤلاء البشر مَن كان يلبس أقنعة أسود ذات ذيول طويلة أشبه بتنانين الاحتفالات الصينية.. لم تكن متقنة، لكنها كانت مخيفة بما يكفي لكي يشعر بأنهم بشر غريبو الأطوار..



كان يدور في المكان وهو يخشى أن يلمحه أحد، ولكنه بدا وكأنه غير مرئي للجميع. وحوش البشر ووحوش الغاب.. كان لا يدري كيف يجتاز هذه الغابة المدينية العجيبة، ولا ماذا يفعل فيها، ولكنه شعر أنه مطلوب منه أن يراقب ما يجري..

ظل سلبيًا.. في كل مرة يراوده هذا الحلم، يبقى إلى نهايته ثابتًا سلبيًا.. لكن. هل تحمل قادم الأيام نهايات مغايرة؟!"..

القاهرة في:

الأحد ٢٩ أبريل ٢٠١٨م





السوسنة الحزينة!..؛؛

هناك.. خلف شاطئ النهر الكبير، الذي اسودت مياهه من الحزن، فهو كظيم..!.. تتدلى أغصان السنديانة العجوز.. تلتف حول سوسنةٍ حزينةٍ، لا تكاد للناظرين تَبين!!.. نيران الألوان تتألق في شمس الأصيل، بينما وشوشات الأمواج البعيدة للنهر تصل لمسامع السنديانة، لكنها لا تملك حراكًا أو تعاطفًا، سوى قطرات نداها التي تنزلق كل صباح على أوراقها؛ كدموع بكاءٍ حزين..

صيحات طائر وحيد، من طيور النهر التي لم تزل بعض بيضاء ناصعة، تعبِّر بدورها عن الحنين.. ربما لوليفته التي غابت، أو للنهر في صورته القديمة!..

والسوسنة لم تزل بعد حزينة..

النوتي العجوز، يجلس وقد تشقق وجهه من عوامل الزمن.. والحزن.. مثله مثل النهر؛ أصبح بعد كظيماً.. يبكي يوسف.. هكذا اسم ابنه؛ الذي ابتلعه سواد النهر منذ سنوات طويلة.. يداعب صفحة المياه بمجدافه ليرى فيها بريق الشمس الغاربة.. لكن المياه تظل ساكنة تعكس نظرة ميتة لعينيه اللتَيْن غاب عنها بريق الحياة..



نقرات لحن شجي رائع تتردد من مقهىً بعيد.. الأصيل يتحول إلى غروب ببطء في ذلك المكان القصي من النهر العظيم.. لحن سنباطي من تلك الألحان التي كانت في تلكم الأيام..

هدير نقرات بطيئة متهادية على القانون بأنامل عبده صالح.. كلمات "ذكريات" لرامي، مع صوت أم كلثوم.. ثم عادت لي ظنوني.. فهي وهم وخيال!.. يصل إلى وسط الزراعات القريبة.. حيث كان يجلس بجوار السوسنة البرتقالية الحزينة.. يداعب أوراقها علَّها تستعيد بريقها ورونقها..

..*

ثم تبقى لي..

على مر السنين..

فهي لي ماضٍ من العمر..

وآتٍ..

رامي..

..*

الغروب يتحول إلى عتمة إلا من ضوء المقهى البعض وبعض الأكواخ الخوص لصيادين كانوا يعيشون هنا قدامى.. الأكواخ أضحت فارغة، وقد هجرها أصحابها، بعد أن ذهب الخير عن النهر..

كل شيء يظلم.. المكان يموت.. النهر لم يعد يلقي طرحه القديم.. هذا المكان قديمًا كان حيًّا..

غابت النور تمامًا عن المكان؛ الذي تحول إلى قَفْرٍ لا روح فيه تدريجيًّا.. الأعشاب العالية النامية كلحية شخص حزين تصدر صوتًا موحشًا.. ينهض ببطء.. أقدامه تهشم بعض الحشائش بينما حشرات الليل تبدأ من حوله سيمفونية الظلام الحزينة!..

القاهرة في:

الأربعاء ٢ أبريل ٢٠١٤م



الشحّاذ!!

كان يسير عفو الخاطر.. لا يدري أين يذهب ولا إلى أين يتَّجه..

عيناه تحملان حزنًا واتهامًا لنا جميعًا بأنَّنا السبب في مأساته.. ستة فتيات أيتام.. وهو لا يجد من يملك سكينًا واحدًا أو مقصًّا يحتاج إلى سَنٍّ لكي يأخذ من صاحبه بضعة قروش قليلة... حمله ثقيل.. لا أقصد بذلك "العدَّة" التي يحملها على ظهره..

هو بالمناسبة جميل جدًّا.. . يملك وجه طفل.. يملك حزن طفل فقد لعبته.. تشعر أنك يمكن أن تلاعبه.. طفل كبير في الخمسين من عمره.. بالتأكيد كان في يوم من الأيام له أمٌّ تعطف عليه، وتمسح جروحه، وتدعو له في أذان الفجر..

ولكن كل هذا انتهى الآن.. هو فقط شحاذ.. يطلب منَّا حسنةً.. نحن "الأثرياء" الذين نملك كل شيءٍ في نظره.. نحن المشغولين عنه وعن أمثاله بالجري وراء الدنيا.. وراء المال.. وراء العمل.. "مستعجلين" لا نملك وقتًا نمنحه له لكي نقف ونتكلم معه ونواسيه..

الغريب أنه دائمًا ما يسير وهو مبتسمًا.. ولكن الحزن الكامن في ابتسامته وعيناه رهيب.. اتهام صامت ولكنه صريح.. ولكنه أيضًا في ذات الوقت

يقول بابتسامته إنه "مسامحنا".. هو طيب جدًّا بالمناسبة.. وقفت وتكلمت معه.. لم أستطع الاستمرار دقيقة واحدة في الحديث إليه.. أعطيته خمسة جنيهات.. دعا لي..

وعندما استدرت ودخلت بيتنا الجديد.. ذهبت إلى الحمام وتقيأت طعام الغداء الذي تناولته منذ لحظات.. معدتي لم تتحمل الشبع بينما هو وفتياته الأيتام لا يزالون جوعى..

مزقت بعض أوراق الدعاية الخاصة بمتجر شهير جدًّا يبيع "مستلزمات" رمضان بأسعار زهيدة.. مثلا ٥٤ قطعة جبن "لافاش كي ري" بـ٣٥ جنيه.. ثلاثة أكياس بطاطس بيوريه ونصف مقليه وكورن فليكس بـ٢٠ جنيه.. ترى هل سمع هو أصلاً عن الكورن فليكس؟!.. يا حرام!!.. جاهل!!.. ما يعرفش الكورن فليكس!!...

القاهرة في:

الخميس ١٤ يوليو ٢٠١١م



الضباب الأحمر

لم يكن الشفق في هذا اليوم البعيد طبيعيًّا. كان ذا لون أحمر قان. لم يكن لضوء الشمس الغاربة دورٌ في ذلك؛ حيث كان لهذه الظاهرة التي رآها سببٌ أخر.. كان هناك الكثير من الضباب. ضباب أحمر ملأ جو السماء، وأحاط بكل شيء حتى إنه كاد أن يظن أن الهواء ذاته يقطُرُ دمًا..

كان ضبابًا كثيفًا، حتى كان ليخيَّل إليه أنه يمكن أن يمسكه بيدَيْه، وأن يقتطع منه أجزاء.. لكن لم تكن هذه هي مشكلته؛ حيث كان يفكر في أشياء أهم في هذه اللحظة. كان يفكِّر في أنه قد فَقَد الاتجاه!..

كان يسير في أرض غريبة، ولا يدري كيف جاء إلى هنا، ولا ما الذي جاء به.. كانت أرضًا شيطانية، فهي تارةً تبدو مليئة بالأشجار، التي لها نهايات تذكره بقصة الغابة والرجال بلا وجوه التي قرأها ذات يوم وهو بعد صغيرًا، بينما تارةً أخرى يجد نفسه يسير على رمال صحراء شاسعة.. تارةً ينخر فيها البرد عظامه، وتارةً أخرى، تكويه الحرارة كَيًّا..

لم يكن لديه أي تفسير.. إلا أن هذا الضباب الأحمر، وأرضه، كان أغرب هذه الظواهر التي التقاها في رحلته الحافلة بالألغاز الغامضة هذه.. حتى

كيف ظل على قيد الحياة؛ لم يدرِ كيف؛ فلم يكن معه أي زادٍ لهذه الرحلة العجيبة..

تذكَّر أبياتًا من قصيدة قديمة تقول:

ذات ليل جحيمي..

تحركت نصالٌ وأظافر..

وأنيابٌ وحشية..

فخضَّب الدم الأفق..

وتساقط المطر الأسود الكئيب..

وعربدت الشياطين..

وسط فوضى الرمال..

التي تحركها العاصفة..

وصار المشهد جحيميًّا..

ولم تعلم القافلة الغافية بذلك..

إلا عندما طلع عليها – ذات يوم – صباح أحمر!!..

فلم تدرك أبدًا الطريق!..

......



لا يذكر أين قرأ هذه الكلمات، ولا مَن صاحبها، لكنه فزع إذْ طافت بخياله وذاكرته، فتوقف في مكانه لحظات، قبل أن ينفض عن ذهنه هذه الأفكار السوداوية، ويسير باحثًا عن مخرج من موقفه العجيب هذا..

لم يدرِ وهو يسير، أنه الناجي الوحيد من أعضاء هذه القافلة التي التقمها جحيم التيه، ولم تدرك أبدًا الطريق، لكنه كان قد نَسيَ – لهول ما رأى – كل شيء.. واستمر يسير.. بلا أي أملٍ في الوصول، حتَى رأى ذلك البيت..

كان بيتًا قديمًا مهملاً، ويبدو عليه أنه لم يشهد أية حياة منذ سنين طويلة، ولكنه لم يأبه لذلك.. كل ما كان يصبو إليه هو المأوى، وليكن بعدها ما يكون.. كان الألم الممض قد أخذ برأسه وهو يحاول أن يتذكر ما جرى.. كانت هناك أطياف وخيالات تلح على ذهنه بشأن ما جرى لقافلته، لكنه كان يظن أنها مجرَّد كوابيس، أو عوارض التعب.. التعب والجوع والعطش بعد أن طال به التيه..

كانت هذه "الفقرة" من القصة – كما دار في ذهنه – تدور في منطقة ذات برودة مروعة، مما شجعه على الاقتراب من البيت الكامن أمامه.. كان للبيت ثقلاً وهيبة، وبدا وكأنه قد شهد الكثير من الأحداث المثيرة منذ أزمنة لا يعرف أحدٌ إلا الله، مداها.. كان كلما اقترب منه ازداد خوفًا منه ومما قد يلاقيه فيه، وتراجعت إلى الخلفية فكرة المأوى.. لكنه كان تَعِبًا.. فاستمر..



وصل إلى بوابة البيت الذي كان من طابقَيْن، وكان مظلمًا شديد الإظلام، حتى من الظلام الوليد الذي بدأ في الإحاطة به بعد غياب الشفق وظهور الغسق شبه المظلم.. الظلال باتت حمراء مرعبة، مما ولَّد لديه رغبةً إضافية في أن يدخل إلى البيت.. المأوى..

دفع البوابة المتهالكة، ودخل إلى حيث كان الإظلام التام.. لم يعرف كيف يتصرف، ولا ماذا يفعل إزاء ذلك؛ فلم تكن معه أية وسيلة للإضاءة.. نظر إلى الخارج؛ فوجد أن الظلام قد صار مطبِقًا، إلا من ظلال خافتة تنبعث من اللا مكان.. من بعيد.. ربما من عند حافة الأفق.. لا يدري، لكنها كانت ظلال حمراء اللون بفعل ذلك الضباب المقيت الذي كان يغلِّف كل شيء..

لم يكن لديه الاختيار.. مضى إلى داخل البيت، ووسط الظلام، والظلال الآتية من الخارج، خلع حقيبته الثقيلة التي دُهِشَ أنها لم يكن فيها أي زادٍ أو أي شيء يشعل به النيران للحصول على الضوء والدفء، وألقاها إلى الأرض جواره، وراح يتحسس ما حوله لعله واجدًا طعامًا أو مصدرًا للضوء، ولكنه لم يجد..

قادته خطواته إلى سلَم صاعدٍ متهالك، استنتج بأنه يقوده إلى الدور الثاني من البيت، لكنه كان شديد الهشاشة، بحيث لم يشأ أن يجازف بارتقائه، فقرر تحسس طريقع إلى حقيبته؛ حيث تركها قرب المدخل..



ثم فجأة، تحرك بجواره شيءٌ.. جفل، وتراجع قافزًا إلى الوراء محاذرًا، لكنه لم يستطِع أن يميِّزَ أي شيء في هذا الظلام القاتل.. انتظر أن يتحرَّك ذلك الشيء مجددًا، لكن ذلك لم يحدث، فخمَّن أنه حيوانٌ صغير من تلك الهوام التي تسكن في مثل هذه الخرابات.. لكنه لم يكن كذلك، وهو ما لن يعلمه أبدًا!..

وصل إلى حيث حقيبته، فجلس أرضًا، قبل أن يجبره التعب والجوع والظلام على أن يستلقي على ظهره، ويحتضن حقيبته.. هزم تعبُه خوفَه، فلم يعد يهمه أي شيء.. كل ما كان يريده، فقط هو أن ينام.. ينام.. وكان مُرْهَقًا، فذهب على الفور، في سُباتٍ عميق.. سُباتٌ لم يصحُ منه أبدًا؛ لاحقًا بقافلته، وليظفر البيت – الذي لا يعلم أحدٌ سرَّه للآن – بضحية جديدة"..

القاهرة في:

الأربعاء ٩ يناير ٢٠١٩م



حكايا عن الطفلة صديقة الفراشات!

(١)

مرَّة أولى!:

جلست تبكي على الرصيف النظيف المرصوف بحجر الإسكافي القديم.. كان حولها بضعة أصص من الورد، وبدت هي بقدها الضئيل وكأنها وردة كبيرة وسط هذه المجموعة من الورود الجميلة الملونة.. وردة وضعت وجهها بين كفَّيْها الصغيرتَيْن، وراحت تبكي..

كانت تملك ضفيرتَيْن ظريفتَيْن وغمازتَيْن جميلتَيْن.. فسألها: ماذا بكِ؟!.. أجابته من بين دموعها: عصافيري طارت..! قال لها: لماذا؟!.. قالت له وهي تنظر إليه بعينَيْها السوداوَيْن اللؤلؤتَيْن، وتمسح الدموع عن وجنتَيْها بظهر كفها الصغير: ذهبتُ إلى المدرسة، ولم يعُد يطعمها أحد؛ فلم تعُد تأتي..!

قال لها في بساطة وابتسامة: هكذا؟!.. فقط؟!.. بسيطة يا ستي.. تعالَيْ معي.. ثم أمسكها من ذراعها القصيرة، وأنهضها، وعند بائع الحلوى، اشترى لها بعد "الطوفي" الجميل، ثم ذهب بها إلى بائع الأدوات المجاور.. ابتاع لها طبقًا صغيرًا، ووضع لها فيه بعض الحَب، وزجاجة مثقوبة للماء،

وأشار إليها لكي تصعد إلى سطح دارها، ثم قال لها بذات البساطة: ضيعهم هناك، وسوف يأتون مرة أخرى!!..

نظرت له بعينَيْها الواسعتَيْن الجميلتَيْن، ثم – في استعجال طفولي جميل – أمسكت الحاجيات من بين يدَيْه، ثم أعطته ظهرها وجَرَت لا تلوي على شيء إلى سطح الدار تتبعها ضفيرتَيْها وأربطة فستانها الجميل البسيط!!..

..*

(٢)

بدت حزينة، وهي جالسة على أطراف درجة السلَّم الكبيرة، وقد وضعت رأسها الدقيق بين كفَّيْها الصغيرتَيْن.. كانت جميلة جدًّا بفستانها ذي اللون الوردي الفاتح وجوربها الأبيض القصير الجميل.. سألتها: مالَكِ يا طفلتي الصغيرة؟!.. لماذا أنت حزينة؟!.. فأجابتني: جاء الربيع، ولكن الفراشات ليست كثيرة للأسف!!"..

جلست بجوارها، أحاورها حول موضوع الربيع الذي جاء من دون فراشات.. قلت لها: يا طفلتي الصغيرة.. أهذا ما يحزنك؟!..

قالت وهي تعيد الارتكاز بذقنها الصغير الدقيق على كفَّيْها: نعم.. أهذا أمر سهل!؟.. ربيع بلا فراشات؟!.. أنت وغد من أوغاد هذا العالم لو تصورت ذلك..

قلت لها: لا .. لا أقصد يا طفلتي الجميلة.. أنا أقصد أن الأمر سهل.. ما دامت هي لم تأتِ إلينا؛ فلنذهب نحن إليها..

قالت لي متعجبة: كيف؟!.. أنت مجنون؟!.. أين هي هذه الفراشات لنذهب إليها؟!..

قلتت لها: هناك. خلف هذا التل، توجد فراشات.. فتعالَيْ نذهب إليها..

شاعت ابتسامة في وجهها القسيم، وقالت لي: هل هذا صحيح؟.. خذني إذًا عند هذه الفراشات.. أرجوك..

قفزت واقفة وقد تحولت ابتسامتها إلى شيء ملائكي سماوي، ثم تعلقت بذراعي، وقادتني إلى حيث أشرت لها، عند وادي الفراشات خلف التلة البعيدة!"..

..*

قالت لي في سعادة وهي ترى وادي الفراشات بعد أن ذهبنا إليه معًا: جميل.. جميل.. كل هذه الفراشات؟!..

قلت لها: أأنت مسرورة؟..

قالت لي وهي تحاول الانفلات من بين أصابعي لكي تجري إلى هناك؛ حيث توجد الفراشات: بكل تأكيد.. بكل تأكيد.. دعني الآن..

قلت لها وأنا أفلت ذراعها الصغير من كفي؛ متصنعًا الدهشة: كل هذه السعادة لأجل الفراشات؟!..

قالت وهي تجري بعيدًا يتبعها ذيل فستانها الوردي الفاتح: نعم.. نعم.. الفراشات هي أهم شيء في هذا العالم.. اصمت أنت الآن، ودعني ألعب معها..

ورويدًا رويدًا اختفت فراشتي الطفلة بين زهور الوادي وفراشاته الطائرة الملونة!..

....

(٣)

في مشهد آخر جمعني معها، جاءتني اليوم سعيدة كعادتها في الآونة الأخيرة، عندما بدأ الربيع.. أمسكت يدي بكفها الصغير الذي ندَّاه العرق البارد، وراحت تتقافز من حولي، والسعادة تُطلُّ من مُحيَّاها الجميل، وهي تقول: اليوم أذهب إلى الملاهي..

قلت لها: وماذا سوف تفعلين في الملاهي؟!.. غابت ابتسامتها لحظة وكأنها بوغتت بالسؤال؛ حيث هي لا تعرف الملاهي، ولكنها، وبذكاء طفولي جميل، قالت وقد عادت ابتسامتها إلى وجهها: سوف ألعب مع آخرين هناك.. ثم جرت كالعادة بجوربها الأبيض وفستانها الوردي الجميل، الذي لا يتسخ أبدًا بغبار دنيانا!!"..

....

(٤)

جاءتني هذه المرة مبتسمة.. كانت تلبس ذات فستانها الوردي الجميل، وجوربها الأبيض النظيف، وقد وضعت يدَيْها خلف ظهرها.. قلت لها: اراكِ مبتسمة هذه المرة، يا أميرتي الصغيرة.. عصافيرك وفراشاتك الجميلة معكِ، كما أظن!!

قالت لي: أنت جميل.. وتستحق هذه الوردات الجميلة، وأخرجت من خلف ظهرها قبضتها الصغيرة، وفيها حزمة من الأزهار التي قطفتها من وادي الفراشات لأجلي..

منحتني إياها، وشبَّت فوق أطراف أصابعها.. ملت نحوها وأعطيتها وجنتي، فقبَّلتني، قبلة ندية هي الأجمل في حياتي لبرائتها.. ثم جرت إلى حيث بيتها الجميل، تجر خلفها ذيل فستانها الجميل المعقود على خلفيتها!..

....

(٥)

غابت عني بعد هذه المرة يومَيْن كاملَيْن؛ فذهبت للبحث عنها.. وجدتها في سطح بيتهم الكبير تطعم العصافير الوافدة إلى السطح مع مقدم الربيع.. رأتني فهشَّ وجهها وبشَّ.. تركت ما في يديها، وقامت من جلسة القرفصاء التي كانت تجلسها.. جرت نحوي، فانحنيت لها؛ فعقدت ذراعيها حول عنقي، وطبعت قبلة نديَّة على وجنتي كما اعتادت..



سألتها: أين كنتِ أيتها الآنسة الصغيرة؟!..

قالت في ملل: كنت في الملاهي!.. أنت تنسى..

قلت لها وأنا أبتسم وأضمها إليَّ وأحملها إلى كتفَيَّ: كل هذا في الملاهي؟!..

داعبت أنفي بأصبعها الصغير، وقالت: كنت أذاكر!!..

سألتها وأنا أطوف بها سطح الدار: وماذا كنت تذاكرين؟!..

قالت لي وهي تداعب بعض العصافير الطائرة من حولها: فلسفة..

قلت لها وأنا أنزلها على الأرض: وماذا تعرفين عن الفلسفة أنتِ؟!..

قالت لي وهي تعقد ذراعيها القصيرين على صدرها الذي لم يزل يتحسس طريقه إلى الأنوثة، وتتطلع إليَّ في تحدٍّ: أنا فتاة كبيرة وأعرف الفلسفة والمنطق وكل شيء!!..

قلت لها: لا تغضبين، فقط أحببت أن أعرف ماذا قرأتِ في الفلسفة..

قالت لي وهي تعطيني ظهرها: قرأت في القيم والأخلاق!!..

درت حولها، وقال: وماذا غير ذلك؟!..

قالت وهي تبتسم وتمسك كفي وقد نسيت غضبها مني فورًا: قرأت "فلتغفري".. جميلة..



وفجأة؛ تركت كفِّي وجرت، وقالت له: الآن.. انصرف!.. فقد عطلتني عن ضيوفي من العصافير والفراشات التي جاءت أخيرًا.. ودائمًا كان جوربها الأبيض وذيل فستانها النظيف يجريان خلفها!!..

....

(٦)

غابت عني طويلاً هذه المرة.. كانت غضبى مني لسبب ما لا أذكره.. ذهبت إليها على السطح؛ فوجدتها تلعب مع زهورها وعصافيرها وفراشاتها. فدار بيننا الحوار التالي:

سألتها: ما بك؟!.. لماذا اختفيتي فجأة هكذا؟!.. ألا تسألي عني؟!..

أجابتني من دون أن تلتفت إليَّ: أنا هكذا.. أسأل وقتما أريد، وآتي وقتما أشاء، وأغضب وقتما أشاء!!..

ضحكتُ لكلامها، واستدرت حولها، ونظرت مباشرة إلى عينَيْها البريئتَيْن، وقلت لها: "هذا أكيد.. فأنت مالكة أمري وعمري، وتعملين ما تريدين".. فصمتت مكرهة، فطوقتها بذراعي، وحملتها إلى كتفي، وأخذت أدور بها في سطح دارهم الجميل..

بدا لها وكأننا نغادر الأرض في دوراننا المستمر هذا عكس عقارب الساعة، وبعد لحظات، أصابها الدوار؛ فنامت على كتفي، وتهدلت ذراعها القصيرتَيْن الطفلتَيْن على ظهري، بينما النسيم والهدوء يداعبان خصلات شعرها وأذنَيْها الجميلتَيْن، وأنا أهدهدها وأربت عليها!..

....

(٧)

في مرة تالية، وجدتها وقد جَلَسَتْ حزينة.. قلت لها: مالَكِ يا صانعة الأحلام؟!.. هل أخذوا منكِ فراشاتك؟!.. قالت لي وهي ترتكن بوجنتها على قبضتها الصغيرة المضمومة: كلا.. أخذوا قلمي الرصاص الذي أرسم به ورداتي واكتب به في كراساتي.. إنهم أشرار.. مثلك تمامًا؛ عندما تظلمني بكلماتك!..

....

(٨)

قالت في فزع طفولي، وهي تتطلع إلى الطبق الفارغ: هل أكلت البرتقال كله وحدك؟..

قلت لها: نعم.. أكلته كله.. كله..

قالت لي وهي تبدأ في البكاء: ولم تترك لي ولا برتقالة؟!..

قلت لها متعمدًا إثارة المزيد من غيظها: نعم..

بكت ثم صرخت في وجهي من بين دموعها: أنت شرير!!..

ثم مسحت دموعها بظهر كفها الصغير الجميل، قبل أن تهجم عليَّ وتقبِّلُني!..

القاهرة في:

الأحد ٢٩ مارس ٢٠١٥م



العابِس

كانت صوليست البيانو في سوناتا "شروق الشمس" التي دونها موسيقار مجهول، تجلس جلستها المتحفِّزة قليلاً أمام لوحة المفاتيح، تستعد لبدء الحفل في قاعة الكون الكبيرة في ذلك المسرح العملاق الذي ازدانت جوانبه بالخشب الأرو الثمين، والستائر الحمراء الفخمة، بينما عازف الكونترباص يهمس مع أوتاره بعض النقرات لضبط نغماتها، استعدادًا للبدء، مع هيمنات خفيفة للحضور..

كانت القاعة تتهيب وهي تتهيأ لسماع الأصابع البلورية تعزف، عندما دوَّى صوت قرقعة عالية من سقف القاعة، الذي انكشف عن صُفَّة من النجوم القريبة التي بدت في أعين الناظرين في قاعة المسرح، وكأنها تهوي فوق رؤوسهم..

ارتعد هيكل الفتاة الناعمة التي كانت منذ لحظات فقط تهم بالعزف على أصابع البيانو البيضاء والسوداء، عندما ارتفع صوت القرقعة القوي فوق رأسها.. رفعت عينَيْها إلى النجوم في وجل، وبدت مقلتاها تلمعان بدموع الخوف ورهبة الموقف والمشهد، وبضوء النجوم المنعكسة عليها..

ساد الصمت القاعة، بينما الأبصار شاخصة إلى تلك "القبة السماوية" العفوية التي انشق عنها سقف المكان، عندما بدأ دخان عظيم في التكوُّن، لينكشف بدوره عن هيكل عملاق لرجل أو – بمعنىً أدق – لما بدا أنه رجلٌ.. بالفعل لم يكن رجلاً بالمعنى المفهوم.. لقد كان "العابس"!..

لم يكن أحدٌ من الجالسين يعلم أي شيء عن ذلك الكيان الهابط أمامهم من السماء.. في الواقع لا يعلم عنه أحدٌ في هذا الكون شيئًا.. هو مخلوق من مخلوقات الرحمن المنتشرة في أرجاء الكون الفسيح.. ربما كان ذلك يعود إلى أنه كان منفيًّا وراء سديم مظلم ما، بلعنةٍ قديمة أصابته.. هو ذاته لم يكن يعلم.. فقط أصابته العزلة الطويلة بمرضٍ غريب.. صار لا يتكلم، وتجمَّدت ملامح وجهه؛ حتى صار يُطلق عليه اسمٍ "العابس"..

ظل "العابس" يرسل الكثير من عيونه للبحث عمَّا أو عمَّن يمكن أن يخرجه من لعنته الأبدية هذه.. بحث كثيرًا، وسافر جواسيسه إلى حد حافة أفق العالم. ولم يفلح.. جاب هو بنفسه السُّدُم، وفحص الكواكب والنجوم.. في سبيل ذلك، تعرَّض للكثير من الأذى.. ضاعت منه مملكته، وتاهت منه نفسه، وراحت ذاته..

وفي يوم، كان يظنه هو جميلاً؛ أبلغته بعض الشُّهب أنها، في إطار جولتها السرمدية في هذا الكون، قد عثُرت على ما تصورت أن فيه علاجًا له.. كانت فتاة البيانو..

عندما رآها من بعيد ذات ليلة، جاء فيها إلى المسرح من مكانه البعيد في سديمه المظلم؛ وقع في هواها من أول نظرة.. منذ ليلته الأول التي رآها فيها؛ صارت هي أيقونته الأثيرة.. لم يكن يحب الموسيقى.. فصار يحب الموسيقى.. لم يكن يحب الأضواء.. فصار يحب الأضواء.. كل ذلك، وغيره كان لأجل هذه الفتاة التي رآها سماوية.. كل شيء فيها كان تامًّا.. كاملاً.. كما كان يتصور الجمال والبراءة والأنوثة منذ أن كان في صباه.. حتى تصفيفة شعرها الكلاسيكية. كان يتخيلها؛ ولكنه لم يكن قد رآها في حياته أبدًا.. وجدها تكلل رأسها ووجهها القسيم..

ذات يوم حدثته نفسه بأن يأخذها معه إلى غابته المتشابكة الغصون والمشاعر.. غابته المظلمة.. الشديدة القتامة..

فكَّر أنه لو جاءها بكامل هيئته وهيبته؛ لربما نال من إعجابها شيئًا، وأن توافق على الانضمام إلى عالمه الكئيب.. ولم يدرِ أنه قد خسرها..

نعود هنا – إذًا إلى مفتتحنا – كانت الأبصار شاخصة إلى هذا المشهد المهيب، بينما أيقونة العابس خائفة تترقب..

هبط على الأرض إلى جوارها، ثم أشار إليها أن تتقدم إليه، وسط صمت رهيب تسيَّد القاعة التي لم يعد يضيئها أي شيءٍ سوى ضوء النجوم، وسوى ضياء وجه الأيقونة.. أيقونة السوسن..

سألها وهو، على جبروته، يتحاشى البهاء الذي يطل من عينَيْها ووجنتَيْها؛ هل تأتين معي.. لم تحِرِ جوابًا.. طال صمته، ثم سألها مجددًا.. فصمتت هي بدورها.. صمت ثم سؤال ثم صمت.. هكذا؛ طيلة الليل، حتى شارف الظلام على الرحيل..

سألها للمرة الأخيرة أن تأتي معه.. لم تُجِبْه.. عندها استدار وأخذ سبيله عائدًا دياره من دونها.. عابسًا كما كان.. ولم ينسَ الجمهور هذه اللية أبدًا.. ليلة الأيقونة والعابس!..

القاهرة في:

الأربعاء ٦ مارس ٢٠١٩م



ابتسامة نوجين

كانت رحلتها شاقة.. طويلة.. مرعبة.. مرَّت فيها، وهي تسير على كرسيها المتحرك، تدفعها شقيقتها بقدها الضئيل، على شوارع يملؤها الخراب والركام.. شوارع وطنها.. بل شوارعها هي بالذات؛ حيث كانت تراها في طفولتها وقد طوَّقها الأخضر الزرعي، والسماوي الجميل..

لكنها ظلت محتفظة بأمل بأن الشوارع لم تكن قد ماتت بعد؛ حيث يمكنك أن ترى أنه لا يزال فيها حياةٌ تنبض.. حياة قد تتمثل في نبتة لم تزل بعد خضراء ولم تحرقها نيران الحرب.. أو في طفل يلعب الكرة.. صحيح أنه يلعب فوق رماد وأطلال، ولكن المهم أنه هنا، هو وكرته الجميلة التي كانت تتمنى أن تلعب بها ذات يوم، ومنعتها إعاقتها.. أو في أحدهم يتنقل هنا أو هناك.. أي شيء. المهم أنه لا تزال هناك حياة.. ليست حياةً يائسة.. كلا؛ إنها تنمو برغم الصمت الموحِش المحيط بها.. صمت الموت.. السام..

كانت تنظر حولها، وهي لا تفهم؛ لماذا يحدث كل ذلك.. ربما أنقذها الشلل الدماغي الذي كانت مصابة به، من كارثة الفهم، وتعاسة المعرفة..

أن تفهم أنها ربما آخر البشر على كوكب الأرض، وأن الباقين مجرَّد كلاب حرب أو قردة متوحشة.. مجرَّد وحوش آدمية.. لا تفهم سبب هذا الذي جرى.. لماذا هؤلاء يقتلون بعضهم البعض؟!.. لماذا اقتحموا بيتها وأرادوا قتلها وهي الفتاة الصغيرة القد، العاجزة المشلولة؟!..

ظلت تتلفت حولها، وهي لم تزل بعد لا تفهم.. حتى وهي جالسة في قارب صغير يتطوَّحه الموج في طريق فرارها الطويل من موت إلى موت.. لا تفهم.. لماذا هي هنا، ولا ما هذا الزي البرتقالي الغريب الذي ترتديه.. هل سينقذها من الغرق مثلاً لو سقط القارب بحمله المثقلة في الماء؟!.. لا تفهم.. ولا تريد أن تفهم..

لم تبتسم طيلة الرحلة.. ظلت على جهامتها لأنها كانت خائفة.. خائفة مما تركته وراءها، وخائفة مما هي فيه، وخائفة مما هي ذاهبة إليه ولا تعرفه..

ظلت طيلة الطريق تفكر فيما لا تفهم، وحدث ويحدث من حولها.. حتى وصلت إلى بر الأمان، وجلست تحتسي كوبها الأول من الدفء والأمان ممثلاً في مشروب شيكولاتة باللبن تناولته عندما وصلت إلى أول مكان استطاعت فيه الجلوس من دون خوف.. من دون خوف من الرصاص.. من الصواريخ.. من الغرق.. من التيه في بلاد الاغتراب..



الغريب أنها برغم مأساتها؛ ربما هي التي منحتنا هي الأمل بابتسامتها؛ عندما جلست نوجين مصطفى؛ اللاجئة الكردية السورية في ذلك المقهى الجميل في ألمانيا؛ حيث حطت بها رحال مشوار اللجوء الطويل القاسي أخيرًا.. تشرب كوبًا من الشيكولاتة باللبن الساخنة، وتتأمل الغد الذي تأمل من خالقها الرحيم في أن يكون أفضل.. اسمها نوجين!"..

القاهرة في:

الخميس ٢٤ يناير ٢٠١٩م



الفرار!

زادت رؤاه لها في أحلامه في الأيام الأخيرة. في الواقع بدأ شريط حياته بالكامل في المرور أمامه في أحلامه في الأيام الأخيرة. بيته القديم وأمه وإخوته ورحلات السوق وجولاته في شوارعه القديمة..

كان عالمه القديم بالكامل يعود من ثنايا عقله الباطن إلى شاشة الرؤية السحرية وهو نائم، ولكن الغريب أن ذلك كان يجري في صياغة جديدة.. حياة أخرى ولكن بذات الوجوه. أحداثٌ جديدة ولكن في صوره ووجوهه القديمة..

نعم.. كان يرى في كل مرة أشياء جديدة، وأحداثًا متطورة، بأماكن جديدة، ووجوه جديدة حية. حية ربما أكثر ممَّن يحيطون به الآن. حياة بديلة. هذا هو المصطلح الدقيق لما بات يراه كل ليلة..

لم يكن ما يراه عشوائيًّا، بل أحداث تبدو وكانها جزءًا من قصة محبوكة الأطراف اجاد كاتب سيناريو محترف، صياغتها، في قالب مبهر جذاب، وكأنها - بالفعل - صيرورات حياة تتم في نفس الأماكن اليومية، وفي أماكن جديدة..



كما صار ما يتذكره من هذه الأحلام أكثر في كل مرَّة، لدرجة أن إدراكه بواقعه قد بدأ يختل.. لم يعد يميِّز بين "الحقيقة" و"الحُلْم"..

إلا أنه أحبَّ ذلك. الخطير أنه أحبَّ ذلك. صار يفر من حياته الغريبة التي استيقظ ذات يوم لكي يجد نفسه فيها، إلى حياته القديمة التي باتت مكوِّنًا أساسيًّا لأحلامه، بل لم تعُد أحلامه سوى عبارة عن هذه الرؤى من شوارعه القديمة ووجوه حياته الأولى الباسمة الجميلة..

لم يدرِ لذلك سببًا.. هل هو الحنين؟!.. وإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا الآن؟!.. هل طال عليه عهد الدنيا، أم أنه أصبح كارهًا إياها؟!.. لا يدري.. فقط كل ما كان يدريه هو أنه عندما يضيق به الحال؛ يرقد في الظلام، وييمم وجهه شطر سقف الغرفة.. يضع الوسادة فوق رأسه.. ويحلم.. فقط يحلم!..

القاهرة في:

الإثنين ٢ يناير ٢٠١٧م



الكابوس!

كان الظلام لم يزل بعد سيدًا؛ حيث كان الوقت قرب الفجر؛ فلم يكن الضياء قد حل بالكون بعد..

وقفت قافلة الإبل في طابور طويل تنتظر في صبر وصمت.. ضخمة مهيبة عملاقة.. إلا أنها كانت متوترة؛ تصدر ذلك الصوت الرتيب القَلِق الذي تصدره الإبل لحظات ضيقها وتوترها، بينما المنزل الأسود القديم المتداعي يقف أمامها على القُرْب منها..

ينتظر هناك بدوره في ذات مكانه منذ زمن بعيد، ولكن كانت تخفيه في هذه اللحظات ظلال ضباب الفجر، والدخان المنبعث من أفواه الإبل في ظل برد آخر الليل، بينما أصوات بعيدة غير مفهومة تصيح أو تُنُقُّ؛ ربما محذرة..

سمع مِن البعض في واحته القريبة، أن هذا البيت لم يبتنيه أحدٌ، وقال آخرون إن شياطين القفر هي التي بنته وتسكن فيه، بينما ذكرت مخطوطات قديمة أنه من صنع آدم نفسه!!.. لا أحد يعلم.. لا أحد يعلم..

كانت الإبل تنتظره لكي ترحل.. ترجَّل الحادي من فوق راحلته وهو نافد الصبر. كان الظل قد طلب منه أن يأتي بالراحلة لكي يرحل معهم. كان

هادئًا حاسمًا، ومنذرًا، بصوته الرتيب الذي يكاد أن يكون هو صوت الموت ذاته!..

لسبب ما لم يرغب الحادي في أن يرى وجه محدثه الذي زاره في غبشة الغروب قبل يومَيْن.. طلب منه المجيء وها هو قد جاء، بينما صاحبه – هل قال صاحبه؟!!! – لم يخرج من البيت بعد..

كان يتهيب البيت.. يكرهه، بعد ما سمع عنه من الأجداد، إلا أن النذير كان قد أجزل له العطاء، وحذره من ألاَّ يأتي.. وأتى.. ذهب لكي يدق الباب مناديًا المسافر الوحيد معه. لم يجبه أحد..

وبعد قرون متطاولة، عثرت قافلة أخرى على بقايا عظام نخرة لعدد من الإبل وقفت تنتظر صاحبها طويلاً من غير أن يعود، حتى دفنتها الرمال، بينما لم يذكر أحد أي شيء عن ذلك البيت الذي يظهر فجأة ويختفي فجأة من دون أن يتركَ وراءه أي أثر!"..

القاهرة في:

الثلاثاء ١٩ ديسمبر ٢٠١٧م





الهارمونيكا المكسورة

كانت لديه وهو لم يزل بعد طفلاً، هارمونيكا جميلة.. اشترتها له والدته ذات يوم من السوق، من ذلك الرجل الطيب الذي كان يبيع أشياء الأطفال الجميلة.. أحبها لنغماتها التي كانت تنبعث منها كلما نفخ فيها.. تمنى وقتها أن يصبح موسيقارًا عندما يكبر..

عندما كبر قليلاً ازداد حبه للموسيقا عندما أحب رباب.. تلك الزهرة الجميلة التي كان من نصيبه أن رآها وأحبها خلال مرحلة دراسته الثانوية.. كانت تجيد كل شيء جميل في هذا العالم.. علمته الرسم والموسيقى وكتب لأجلها أجمل وأبسط كلماته.. لم تزل لديه بعد هذه الأوراق.. لا يدري لماذا ظل يحتفظ بها إلى الآن.. في الواقع هو يحتفظ بكل أشياء طفولته القديمة..

لم يدرِ لماذا تذكر هذه الهارمونيكا القديمة وهو يسير في شوارعه القديمة.. أتته هذه الذكريات بينما هو يسير على غير هدىً ذات أصيل يوم من أيام الخريف.. الحي القديم الذي ولد ونشأ فيه، وشهد أيام طفولته ومراهقته وشبابه.. كل ركن فيه له معه حكاية وقصة.. أمسيات الصيف وأصيل الخريف وأمطار الشتاء.. وأيام الربيع.. كل المواسم.. كل الأشياء.. كل الذكريات..



بائع الصحف الذي يسهر للفجر.. ذكريات عودة الوالد والوالدة من ليبيا سيرًا على الأقدام.. الحقائب فقط في يد والأبناء في اليد الأخرى.. لم يتسع وقت الديكتاتورية العربية لحمل المدخرات والمال أو أي شيء آخر.. هذا الرجل بالذات كان دائمًا ما يذهب إليه لكي يحمل منه صحف الغد إلى والده لكي يرى إذا ما كان قد نال حظًّا من مسابقات وظائف دول النفط..

أصر؛ فسافر.. عاد ورجع ثم سافر.. وهكذا؛ حتى سافر ذات يوم ولم يعُد.. مات في بلاد الاغتراب تاركًا خلفه إخوة له؛ ربما لا يراهم في عمره أبدًا.. هو في الأصل قد كبُر.. شارف على الأربعين.. تُرى كم تبقى من أربعين في العمر؟!.. لا شيء.. في الحقيقة أننا كل يوم نقترب أكثر وأكثر من نهايتنا المحتومة..

....

وظل يسير..

....

الأصيل بدأ يتلون بألوان الغروب الشجية، إلا أنه بالرغم من ذلك، كان لا يحب منظر الشمس وهي تغرب من خلف أسوار المدرسة العالية البعيدة التي تحتل مسافة طويلة من ذلك الطريق.. تذكره وحشة رياح الخريف وكسرة الشمس الحزينة، بخطوات قطعها ذات يوم وهو مع والدته الراحلة في نفس التوقيت من اليوم.. أصيل يوم خريفي، عندما غاب والده

بغتة، وخرجا معًا للبحث عنه، ولم يجداه.. اشترت له يومها بعض القصص الجميلة التي كان يحبها.. كان أصغر من أن يفهم؛ لكنه شعر بحزنها العميق.. هذا اليوم ترك فيه أثرًا عميقًا بدوره لم ينساه إلى الآن.. إلى الأبد!..

في لمحة من الطريق رأى منزلاً قديمًا تذكر معه الهارمونيكا القديمة الجميلة.. كان منزل رباب.. فتاته القديمة.. التي بقت معه عقودًا طويلة بعد أن رآها آخر مرة يوم ظهور نتيجة الثانوية العامة.. كان يرى ابنتها الصغيرة الجميلة التي تشبهها كثيرًا.. لكن كلا.. لا يوجد من يشبه رباب..

......

......

عاد إلى بيته في ذلك الحي البعيد الذي انتقل إليه منذ سنوات.. لم يكن يكرهه.. لكنه كان يتذكر معه أشياء بائسة كثيرة؛ فلم يستطع أن يحبه.. كان يتذكر أيامًا ظن فيها أن معانٍ مثل السعادة والوفاء، لم تزل بعد في هذا العالم، قبل أن يكتشف أن هذا كله سراب!.. الأصل في الأشياء الخيانة إلى حين إشعار آخر.. ربما كانت رباب استثناءً.. كانت سحابة رقيقة بيضاء، مثل اسمها تمامًا؛ أتت إلى عالمنا واختفت منه في ثوانٍ!..

لم يبدل ملابسه حتى.. كان أول ما فعله عندما دخل إلى بيته؛ أن بحث عن الهارمونيكا طويلاً حتى عثر عليها مكسوةً بالغبار في صندوق قديم منسي.. مكسوة بالغبار ومكسورة.. لم يدرِ كيف نسيها إلى هذه الدرجة!..

بعد أن مسح عنها غبار السنين بعناية، حاول كثيرًا أن يصل الجزأَيْن اللذَيْن صارت إليهما الهارمونيكا القديمة.. في البداية لم يعرف.. حاول وصل الجزأَيْن بكل الحيل المتاحة؛ فلم يعرف.. قام يبحث في أشيائه عما يساعده في هذه المهمة العسيرة؛ حتى وجد زجاجة من اللاصق القوي، راح يستعمله بحرص حتى لا يتسبب في تلف أنابيب الهواء والألسنة الصغيرة بداخلها..

في البداية وضعها على لوح من الزجاج ليُوازن سطحَيْ الجزأين معًا، ثم راح بواسطة أداة دقيقة، يوزع المادة اللاصقة على أطراف الجزأين، حتى انتهى وتركها تجف.. انتظر برهة ثم أمسكها بحرص لكي يتأكد من متانة عملية اللصق.. كان شديد السرور كطفل صغير عندما وجدها كاملةً سليمة بين يديه.. رفعها إلى شفتيه ونفخ فيها.. انطلقت منها ذات النغمات القديمة التي كانت تنطلق منها.. إلا بعضها كان مكسورًا.. كان يصدر من عند الأنبوبَيْن اللذَيْن كان عندهما الكسر..

ولكنه، وبرغم ذلك، كان سعيدًا.. سعيدًا بالنغمات التي تنبعث منها.. نغماته القديمة!..

هامش:

رباه!.. ما أقسى عدم النسيان!..

القاهرة في:

الخميس ٢٧ أغسطس ٢٠١٥م

بالأمس كُنْتّ معك!!

قصةُ الأمس.. أناجيها..

أحمد فتحي

..*

لقد ذهبتُ إلى هناك!!.. بالأمس.. ذهبتُ إلى الكلية!!.. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.. ذلك المكان الذي أدينُ له إلى الأبد بأي شيء أنا فيه الآن.. ذلك المكان الذي أحبه من كل قلبي.. والذي- أيضًا- تركتُ فيه قلبي.. منذ سنوات طويلة.. طويلة.. أكثر من أنْ تُحصيها الذاكرة..

لا أدري ما الذي دَفَعَني إلى الذهاب إلى هناك في هذه الأيام، بعد سنوات من الغياب.. رُبما هي سلسلة المشاكل التي مررتُ بها في الأشهر الأخيرة، والتي جعلتني أحن إلى ماض بعيد.. ماض كان لي فيه أم تُدافع عني وأصدقاءٌ يحيطون بي، ويسألون عني.. أيامٌ كانت لي، وكنتُ لها.. ماض لم يكُن خال من المشاكل، ولكنها كانت مشاكلَ واضحةً، برغم ثقَلها وصعوبتها، وليست غامضةً متشعبَةً أو مُعقدةً مثل مُشكلات هذه الأيام...

المهم، يومها استقللتُ سيارة أُجرة من أمام المركز الذي أعمل فيه حاليًا، ويقع في منتصف شارع "الأهرام" تقريبًا.. كنت قد بحثت طويلاً عن سيارة تُقلني إلى ميدان رمسيس؛ لكي أتمكن من الذهاب إلى بيتنا.. إلا أنني، وبعد أنْ ركبتُ، وتجاوزت بنا السيارة "الميني باص" التي كنتُ أستقلها، ميدان الجيزة، ثم حديقة الحيوان، ووصلنا الجامعة؛ حتى وجدتني فجأة أندفع نازلاً من السيارة، وسط دهشة الركاب، بعد أنْ كانت قد تحركت فعلاً من المحطة..

..*.*.*

بأقدام مرتجفة رحتُ أخطو فوق أرض الجامعة.. مررتُ بكل معالمها الأثيرة.. كلية الآداب.. القُبة.. مكتبة الجامعة.. كلية العلوم.. قاعة المناسبات، ثُم.. ثُم كُليتُنا.. و.. ووقفت هناك أتأمل ذلك المبنى الجميل الذي يحوي أجمل وأروع أيامي وذكرياتي.. وقفت أتطلعُ إلى جدرانه الخارجية في شغف وبقلب وجل..

كنت أفكر منذ أشهر في هذه الزيارة، إلا أنني كنتُ أخشاها بشدة.. كما لم أخشى شيئًا في حياتي.. حتى الموت والمرض أنا لم أخشاهما بنفس القدر؛ لأنني كنت أعلم أنني سوف أجد هناك كومةً من الذكريات العذبة.. العزيزة جدا.. القاسية برغم كل شيء.. لماذا؟!.. سوف أقول لكم بالطبع.. كنتْ أخشى ألا يَعْرِفَني المكان..!!..

....

إلا أن المكان قد عرفني كما عرفته!!.. لم يسألني أحد من أنت وإلى أين أنت ذاهبٌ كما هو مفروضٌ، وكما هي العادة، برغم أنني من المفترض أنني وجهٌ غريبٌ.. عَرفَني الناس.. كل الناس.. لا زال هناك منهم الكثيرون ممن يعرفونني، ومَنْ لا يَعْرفَني، لم يشعر تجاهي بالغربة.. أنا منهم.. كنت مثلهم منذ سنوات..

اندمجتُ مع الطلبة.. سرتُ أتأمل في الجُدران.. في أبواب المُدرجات.. المصلى الصغير بجوار باب "مدرج واحد" لا يزال كما هو.. الخزينة.. الكانتين.. غرفة السويتش.. لحظة!!.. أين غرفة "شئون الطلبة"؟!.. "بجوار الساعة.. شمال".. هكذا أخبرني أحد العاملين الجُدُد.. قال لي إن اسمها صار "شئون التعليم".. ذهبتُ، ودخلتُ..

كانت لا تزال تجلس هناك.. أبلة "زُهير" التي كانت تساعدني كثيرًا في سنوات الدراسة.. كانت تحل كل المُشكلات.. كنتُ مدينًا لها بالكثير.. "أهلااااااااااااااان" أريحيةٌ وقويةٌ انطلقت منها.. صادقة المشاعر كانت.. حارةٌ وهي تستقبلني.. شدتْ على يدي بقوة.. سألتني عن أخباري.. وعن أخبار والدتي.. كانت صديقتها.. أبلة "زُهير" من شبرا مصر مثلنا.. من خلوصي. تألمتْ كثيرًا لما عَرفَتْ أن أُمي ماتتْ.. تلك المرأة الباسلة التي وقفت ذات يوم تساعدني على ركوب "الباص" الذاهب إلى الجامعة في أول أيامي فيها ذات يوم خريفي عاصف.. ماتت..!!

..*.*.*

ولما تتلاقى الوشوش مرتين..

ما بيتلاقوش يوم اللقا التاني..

عمر الوشوش ما بتبقى بعد سنين..

نفس الوشوش..

دي بتبقى.. تبقى شيء تاني..

سيد حجاب/ عمر خيرت

..*.*.*

بسلاسة أمضي مع المكان وجدرانه.. المكتبة.. الدور الثالث.. الدور الرابع.. ذات الوجوه تقريبًا، حتى وجوه الطلبة الجُدُد.. ذات الخلفية.. ذات المشية.. ذات الأفكار.. ذات الآراء مع لمحة أكثر عصرية بلا شك بعد أكثر من دستة من الأعوام..

وبعد جولة بطيئة في المكان كله.. اخترت الركن الأثير الذي كنتُ أحب أنْ أجلس فيه في الماضي.. أمام المكتبة بجوار دواليب الكئوس والأوسمة التي حصلت عليها الكُلية عبر نصف قرن من العلم.. جلستُ وسرح بصري وفكري بعيدًا.. بعيدًا.. وفجأةً، لم أعد هناك.. لقد عدتُ إلى الوراء.. الوراء البعيد..

....

ذكريات أول يوم لي في الدراسة.. الثاني من أكتوبر من العام ١٩٩٣م.. ومشهد أُمي وهو يبتعدُ مع ابتعاد "ميني باص" "٨٣" الذي كان جديدًا في ذلك الزمن، من محطة ميدان التحرير مُتجهًا بي إلى ذلك الكيان الغامض المَهْيب.. جامعة القاهرة؛ التي أنجبت طه حسين ومصطفى مشرفة.. لم أكُن أعرف أن حياتي كلها سوف تتغير بعد ذلك اليوم..

يومها ظل قميص أُمي الأخضر وتنورتها البُنية يلوحان لي من بعيد.. كأنها منارة تضيء حياتي كُلها من بعد.. ظلت واضحةٌ برغم بُعد المسافة، حتى استدارت السيارة آخذةً طريقها إلى كوبري قصر النيل.. هنا، وهنا فقط اختفت أُمي من المشهد.. لكنها ظلت وستظل باقيةٌ في عقلي وقلبي وذاكرتي، إلى أنْ يُغمضُوا لي عَيني، توطئة لأنْ يدفنونَني..

......

المُذكرات ورائحة الورق المُصور والكُتُب المُميزة.. طبعًا كان التصوير يتم على ماكينات تعمل بـ"الجاز".. وكانت رائحتها شنيعة فعلاً لدرجة أن والدتي كانت تمنعني من إدخالها المنزل قبل تهويتها جيدًا فوق "درابزين السلم الأفقي المجاور لشقتنا في الدور الثالث في المنزل الذي نَسْكُنَ فيه.. البعض كان يُبالغ حقًا ويضع بنزين على الأحبار لكي يطبعوا بزُجاجة الحبر الواحدة أكبر قدر ممكن من "الملازم" لطلبة المدينة الجامعية والجيزة (!!)، بما كان يجعل من حَمْل هذه الأشياء، في الصيْف، مُخاطرةً حقيقيةً....

ذكريات غمزات الزملاء وأحاديثهم الجانبية.. من سيتزوج من؟.. ومن سينجح ومن سوف يرسب؟.. الدكتور الفُلاني ثقيل الظل.. والمُعيد العلاني.. وسيم لكنه خبيث.. فلا يصلح.. شئون الطلاب.. جداول الامتحانات.. وهكذا مرت أيام وسني الدراسة التي لا يمكن تعويضها..

......

ذكريات أول محاضرة.. هنا المهم.. كُنا جالسين في مُنتَصَف المدرج رقم "واحد" أو مُدرج الدكتور عز الدين عيسى، وهو أحد أكبر رموز القانون في مصر والعالم العربي كله، وأحد الآباء المُؤسسين للكُلية في مطلع الستينيات الماضية.. كانت مُحاضرة في مبادئ العلوم السياسية للدكتور محمود إسماعيل.. كنا أربعة.. أنا و"رضا الإمام الإمام الحسيني" من المنصورة، و"وائل بركات علي منصور" من الأميرية، و"شندي"- لا أذكر اسم والده أو جَده- كان من المنوفية..

كانت المُحاضرة سَلسَةً، رُبما أكثر من اللازم؛ لأن كل شيء كان في الكتاب، ولذلك راح كل منا ينظُر حوالَيْه محاولاً التعرف على الآخرين..

لحظاتٌ ووكزني "رضا" في ذراعي.. استدرت له مُتضايقًا؛ حيث آلمتني الوكزة.. فأشار من طرف خفي إلى الصف الثاني من المُدرج.. نظرتُ له، وقلت: أين؟!.. تضايق من أنني "لم أركز" معه منْ أول مرة.. أعاد الإشارة، وقال لي: "هناك في المنتصف.. تلك الفتاة ذات الشعر الأسود السايح"..

هكذا وصفها فعلاً، برغم تربيته الريفية، إلا أنني علمت أنه لم يكن يسخر، بل يصفها بمصطلحاته الريفية الجميلة البريئة..

أعدتُ النظرُ بدوري.. ورأيتُها.. للمرة الأولى رأيتُها..

..*

زي الهوا.. الساري..

وخيال الطيف..

..*

كانت هناك، تجلس كفراشة رقيقة ناعمة.. ترتدي "بول أوفر" صُوفيا أزرقَ اللون، بسيطًا جميلاً مثلها، أو أنه صار جميلاً لأنها ارتدته هي.. كانت ترتديه فوق بنطال أسودَ، وقميص أبيضَ شاهق، خرجت أطراف ياقته البيضاء الشديدة النظافة لتُحيط بجيدها الرقيق العالي، في تناغم رائع مع جبينها الأبيض البيضاء، منحها مع تصفيفة شعرها البسيطة الجذابة في ذات الوقت، وبشرتها البيضاء، المزيد والمزيد من البهاء والجمال.... كانتْ حُلوةً.. وليستْ جميلةً.. بالمناسبة "الحُلوة" في اللغة العربية أفضل من الجميلة..

لا أزال أذكر كل شيء فيها.. كل تفاصيلها.. كانت قد اعتادت أنْ تعقص شعرها الأسود الفاحم على طريقة "ذيل الحصان" التي تُذكرُني بفتيات

الثانوي، بينما تُسدل ببعض خُصلات الليل الحالك الطويلة على جانب جبينها العالي وجبهتها البيضاء الوضاءة..

همتُ بها حُبا.. أربعة سنوات أحبها.. بجنون.. لم أجد فتاةً في حياتي تقترب من الكمال، مثلما فَعَلَتْ هي..

ذات يوم عرفت أخرى تشبهها، فَهمْتُ بالأخرى حُبا.. ذات الوجه.. ذات العينَيْن السوداوَيْن.. ذات الجبين الأبيض المُشرب بالحُمرة.. حتى ذات الذوق العام في الملابس، مع لمحة عصرية لدى الأخرى، تبعًا لفارق الزمن.. إلا أن "حنان" كانت أعظم وأجمل.. كانت أسطورة رُبما لن تتكرر في حياتي.. في الدنيا..

..*

أحلى سنين العمر..

بينا تمر..

..*

كنتُ أعلم أنها تُخفي شخصيةً صُلبةً خلف مظهرها الرقيق هذا، ولذلك كنت أحبها، أحبها بشدة، ولا زلتُ في حقيقة الأمر.. للآن أعتبرها أعظم من عرفتُ، وأهم تجربة مَرَرْتُ بها في حياتي الحافلة..

كانت تعلم أنني أكن لها كل هذا الحب، لكنها لم تتخل لحظةً عن صداقتنا البريئة الجميلة.. احتَفَظْتُ لها باحترامي طيلة سنوات الدراسة وما بعدها.. كانت أسطوريةٌ.. كانت الوحيدة التي تستطيع أنْ تأمرني، وهي كانت تعلم.. تعلم.. كنت أغادرها.. أبحث وأجرب وأفعل كل شيء.. ثُم أعود لها.. كانت تتحمل.. تتحمل.. لأنها هي.. لأنها "حنان"..!!

عصمتني.. حبها كفاني كل شيء.. زهدتُ في بريق الفتيات من حولي، برغم محاولات كثيرة جرتْ للتقرب ولفت الأنظار.. اجتهدتُ في دراستي لأكون لائقًا بها.. غيرتُ في شخصيتي الخجول.. صرتُ إيجابيا لأجلها، وهي قدرتني واحترمتني احترامًا عميقًا، ولا أجرؤ على أنْ أقول أنها كانت أقرب إلى أنْ تحب.. ولكن، صدقوني احترامها عندي أكبر وأهم بكثير مما لو كانت قد أحبتني.. لذلك ستظل ذكراها حاضرةٌ لدي إلى الأبد..

..*

لملمت خيوط الشمس..

علشان أغزل لك شال..

وعزفت حروف الهمس..

وفي أجمل كلمة اتقال..

عبد الرحمن أبو سنة/ أحمد الحجار

..*

"حنان".. "حنان".. "حنان م. م. س. ع".. لا أزالَ أذكُر الاسم بالكامل.. رأيتُها.. نعم.. لا ليس في ذكرياتي في المدرج الأول فحسب، بل خُيل إلي أنها قد جاءتْ بعد كل هذه السنوات لتجلس بجواري في ذلك الركن أمام المكتبة في الطابق الثاني من الكُلية؛ حيث كنتُ أستعيد ذكرياتي.. جاءت لتناقشني في بعض شئون الدراسة كما اعتادت طيلة السنوات التالية..

..*

وناديتك ما سمعتيش..

ولإمتى الرد سكون؟!...

........!!......... للأبد....!!!

..*

عرفت من حمودة، العامل في مركز البحوث والدراسات السياسية بالكُلية الذي عرفني بعد كل تلك السنوات، أنها قد تزوجتْ من شريف زميلنا.. وأنها.. أَنْجَبَتْ!!.. لم أسأله ماذا أَنْجَبَتْ.. فلم يعُد ذلك يهم.. لأنني أعلم أنها ضاعتْ للأبد.. لكني كنتُ كالطفل الصغير.. لا أقبل بحقائق الحياة البسيطة مثل هذه الحقيقة..

..*

بتبدل الأيام ملامحنا..

ترعشنا.. تنعشنا.. تشوشنا..

يا ترى احنا اللي بنعيش الزمن..

واللا الزمن هو اللي بيعشنا..

..*

كنتُ أتمنى أنْ أراها في ذلك اليوم.. لكن ذلك لم يحدُث.. قُمتُ من مكاني مُتثاقلاً.. لم أكُن أتمنى أنْ يمر الوقت.. كنت راغبٌ في الموت حيث أنا.. ولكن ذلك لم يحدُث.. لم يحدُثْ.. لم يحدثْ..

في رحلة العودة، أصررتُ على المضي من ذات الطريق الذي شاهدتها فيه لآخر مرة.. يوليو ١٩٩٧م.. آخر أيام الامتحانات.. كانت قد فضلتْ أنْ ترجع من مبنى الامتحانات في آخر الجامعة إلى الكُلية يومها من خارج الجامعة، من شارع "بين السرايات"؛ تلافيًا للزحام الشديد.. تُرى هل لا تزال معالم خطواتي على تراب الطريق، وأنا أشيعُها يومها بنظراتي؟؟!!..

نعم أشيعها.. يومها "حنان" ماتت بالنسبة لي.. ما الفارق بين الموت وبين الفراق بلا رجعة؟!.. كلاهما لن نرى معه من نحب للأبد..

..*

وقفت أراقبها، وهي تختفي من أمام ناظرَي تدريجيا.. كانت في البَدء واضحة التفاصيل.. ثُم راحت تتضاءل رويدًا رويدًا.. حتى صارت وفُستانُها البُني عبارةً عن بقعة بُنية بعيدة.. بعيدة للغاية.. ثم اختفت وصاحبتها فاطمة التي كانت ترافقها، من أمام عيني في ضجيج الزحام..

..*

كان الزحامُ شديدًا، أيضًا هذه المرة.. أكداسٌ من أوراق المُذكرات والكتُب متراكمةٌ على الأرض.. لقد اقتربت الامتحانات.. ومحال التصوير والمطاعم المُحيطة بالجامعة ومنطقة "بين السرايات" مملوءةٌ عن آخرها.. بينما وَقَفْتُ وسط تيار بشري مُتدافع من حولي، ولا أشعُر بالناس وهي تتصادم بين ذاهب وآت.. كل ذاهبٌ في طريق.. تاركًا خلفه ماضيًا مر عليه بين حلو ومُر.. بينما الأنظار جميعها تترقب الأفق في إشفاق وكأنها تنتظر غد قد يجيئ وقد لا يجيئ.. وفي الغالب لن يجيء..

استدرتُ أبحث عن أوتوبيس من بين الأوتوبيسات المارة لأرحل به إلى داري.. رَكبْتُ أولَ سيارة وَقَفَتْ أمامي.. لا أعلم رقم الخط أو إلى أين يتجه.. وبدَوْت شاردًا وفاقدًا للبوصلة..

..*

والشوارع حواديت..

حوداية الحب فيها..

وحوداية فيها عفاريت..

وإسمعي يا حلوة لما أضحكك..

صلاح جاهين

إلا أن الحلوة بكت هذه المرة يا عم جاهين.. سلام!!

القاهرة في:

السبت ١ مايو ٢٠١٠م







تأملات في خطابات قديمة!

كعادته يوم إجازته، تمتد يداه إلى صناديق "بندورا" العديدة التي يمتلكها في خزائنه.. من بينها صندوق خاص للغاية؛ لم يفتحه تقريبًا منذ أن ترك بيته القديم.. وقبل أن يتركه أيضًا بسنوات طويلة.. كان الصندوق يحوي "شريط" تسجيل قديم، وبعض القصاصات الورقية وطرحة أمه البيضاء التي كانت تقرأ القرآن الكريم وهي ترتديها على رأسها.. كذلك، كانت تحوي بعض الخطابات القديمة..

خطابات متبادلة بين والدته ووالده.. والده الذي كان دائمًا على سفرٍ، وكانت أمه الباسلة تتحمل دوره ودورها، في ظل ظروف صعبةٍ شديدةٍ القسوة.. لكنها كانت باسلة، وعرفت كيف تدير الدفة في بحر العواصف هذا..

كان قد جمع تلك الخطابات من بين أروقة وأرفف الأثاث القديم الخاص بوالدته الراحلة.. كانت بدورها وكأنها تخشى الذكريات؛ فكانت تخفي هذه الأشياء المؤلمة عن نفسها وعنهم.. إلا أنه كان قد استطاع جمع بعضها، وترتيبه، ثم إخفاءه في مكان ما من صناديقه العديدة..

مد يده لكي يفتح الأوراق التي اصفرَّت، وبليت أطرافها.. الأوراق التي رشح الحبر الأزرق أو الأسود من وجهها على ظهرها.. كان يصر والده على استخدام الأقلام الحبر.. كان يرى لها طابع المثقفين والمفكرين القدامى، بينما كانت والدته تستخدم الأقلام "الجافَّة" الحديثة أو أيًّا ما تيسر من أدوات الكتابة..

الخطوط متقاربة في الجودة والكفاءة.. وكذلك كانت الأحلام والقيم والأفكار.. في تلك الأيام، كانت لقيمة "الكفاح المشترك" مكانةً عظمى لدى "الزوج" و"الزوجة"، وتتحول إلى شيء مقدس، عندما يصبحان "أبًا" و"أمًّا"؛ مسئولان عن مستقبل آخرين، هم الأبناء.. كانت قضية التربية قضية مقدسة، باعتبار أنها كانت نابعة من مدرك مهم، أنها مستقبل مجتمع، ومستقبل أمة..

ذكريات عديدة مرَّت بخياله وهو يقلب في هذه الأوراق.. والده كان معلمه الأول.. لقنه اللغة والحساب، والأهم أنه علمه مَن هو، وكيف يوجه بوصلته في هذه الحياة.. فارقه الأب مبكرًا؛ فتولت الأم استكمال المهمة؛ مهمة أن يعرف ذاته، قبل أن يخطو في جحيم شوارع هذه الحياة..

الكلمات.. الكلمات الجميلة المكتوبة بخطٍّ نضيد.. بعضها يقول: "زوجتي الحبيبة وشريكة حياتي، رفيقة الكفاح.. أخاطبكم وصورتكم لا

تفارق ذاكرتي، أنتم والأبناء الأعزاء.. هالة الروح وأحمد القلب وحسين الحياة الحلوة الجميلة..".. كان أديبًا.. كان مفكرًا.. كان رائعًا..

ترد هي؛ فتقول: "زوجي الكريم، أبو أبنائي.. أنتظرك.. أبناؤك بخير؛ فاطمئن".. كلمات حازمة تطمئنه في غربته.. كان يعلم أنه قد ترك في أسرته محاربة وليست مجرد زوجة وأم..

يؤكد على المواعيد.. على الالتزامات.. تؤكد هي على العهود.. دروس قيمية وأخلاقية عظيمة، تعلمها من هذه الكلمات.. كان يختلس النظر إلى خطابات أبيه التي كانت تحتفظ بها في ركن قصيٍّ من دولابها، بينما كان يلتقط كلمة أو جملة بينما هي تكتب الردود.. لحظات ثمينة زهيدة العدد؛ لكنها كانت عظيمة القيمة؛ إذ رسمت مستقبله للأبد.. المواعيد والوعود والعهود والالتزامات.. يسمونه في عمله "الرجل الساعة".. لا يعلمون أنه صار كذلك؛ من مجرد كلمات على أوراق مصفرَّة..!

يا للتعبيرات!.. هل يدركها أحدٌ هذه الأيام؟!..

كانا متفاهمَين.. لم يرَ قصة حبٍّ مثل تلك التي كانت بينهما، ولا يدري ما الذي جعل الحزن والضيق، ثم الغضب والخلاف الذي عصف بكل شيء، يحطوا رحالهم في هذه العلاقة النبيلة؟!.. ربما هي ضائقة العيش.. ربما هي السياسة العربية التي فرقت ما بين الأب والأسرة لسنين طويلة.. سنين

طويلة من المعاناة التي خاضتها هي وحدها.. فقط كانت متسلحة بالإيمان بالله عز وجل الذي لم يخذلها..

المزيد من الأوراق الصفراء.. تواريخ أحدث.. تروي قصة حياته.. تمر بشريط ذكرياته أمامه.. أيام الرخاء التي تحولت إلى معاناة.. كيف فارقهم الأب.. كيف حالت بينه وبينهم حدود "سايكس- بيكو" المشئومة بعد حرب الخليج الثانية.. صدام وعرفات ومبارك وصالح.. وكل هذه الوجوه الكالحة منعته من أن يكون أبًا لهم في أحرج سِني حياتهم.. فلسطيني يعيش في اليمن؟!.. كيف يدخل مصر؟!.. هذا مع ذاك وذاك ضد هذا!..

دريد لحَّام كان على حق!!.. الحدود.. هي ما أحالت سعادته إلى جحيم من التعاسة والذكريات لعقود قائمة!..

لملم أوراقه سريعًا عندما وصل إلى هذه النقطة، وقام يصلي لله تعالى أن ينسى!..

القاهرة في:

الإثنين ٢٨ أبريل ٢٠١٤م



تنويعة أندلسية على موشح حلبي !

قدُّك المياس يا عمري..

يا غصين البان كاليسرِ..

أنت أحلى الناس في نظري..

جلَّ مَن سوَّاك يا قمري..!

موشح حلبي تراثي قديم

❋.❋.❋.❋.❋

قال لها كيف تحبيني؟!..

صمتت لبرهة طويلة؛ ثم أجابت في لهجةٍ طفولية بريئة: قد البحر..!

قال لها معابثًا إياها: كلا.. أكثر.. أريد أكثر..

ردت بصوتها ذو النغمات الرنانة: قد الكون كله..!

قال لها: أنا أحبك أكثر..!

سألته: كيف؟!.. أكثر من الكون كله؟!..

رد وأجاب: نعم.. بكل تأكيد..

ضحكت ضحكة قصيرة، وسألته: وما هو أكبر من الكون كله؟!..

سألها مبتسماً: خمني!..

قالت له: قد الجنة؟!..

لم يرد.. فضحكت هذه المرة ضحكة طويلة..!

..*

عيونك سود يا محلاهم..

أنا قلبي تلوَّع بهواهم..

صار لي سنتين بستناهم..

حيَّرت العالم في أمري..

موشح حلبي تراثي قديم

..*

عاد إلى حديثه وأحاديثها.. سألته: للأبد؟!..

قال لها في تأكيد: نعم.. للأبد..

- وفي الآخرة؟!..



- نعم.. وحتى الآخرة.. سوف نكون معًا.. هناك..

تنهدت.. ونقل لها الأثير صوت تنهيدتها الحارة.. تنهيدتها القادمة من أقاصي جبال الأطلس.. من عند المدينة البيضاء.. الواقعة بين تخوم الصحراء وشاطئ البحر العظيم..

تمنى لو أنها فقط الآن بجواره.. يضمها، ويضع رأسها في أحضانها مبللاً إياها بدموعه على سنوات طويلة مضت من عمره من قبلها.. من دونها!..

القاهرة في:

الأربعاء ٩ أبريل ٢٠١٤م



حلْم!..

كل حلم.. أراك فيه معي..

لكنه دائماً ما ينتهي بك تبتعدين..

هل هي خيالات؟!..

أم أمنيات غير مكتملة؟!..

أجيبي يا سيدتي..

أجيبيني!!..

الكاتب

..*

"ده حلم"..!!.. عبارة قرأها في بعض أوراقها.. لم يكن من هواة التلصص على أوراق الآخرين.. وبالذات هي.. كل ما يفعله معها أنْ يكتفي بما تمنحه هي له.. كلمةً.. عبارةً.. ابتسامةً.. أو تحيةً.. إلا أنه لم يعتدْ أنْ يفتش في أوراقها التي تقع في بعض الأحيان مصادفةً أمامه..

توقف كثيرًا أمام عبارتها هذه.. "ده حلم".. ترى ماذا تعني بها؟!.. كانت كلمة مبهمة تقع في مستهل ورقة بيضاء.. فقط هاتيْن الكلمتيْن في أعلى الورقة ثم مساحات بيضاء شاسعة بعد ذلك، ولا شيئًا آخر..

تخيل يديْها البلوريتيْن الرقيقتيْن وهما تكتبان هاتيْن الكلمتيْن.. ترى ماذا دار في رأسها من أفكار وهي تكتبها؟!.. ماذا أرادتْ أنْ تقول؟!.. أسئلة.. أسئلة.. أسئلة، وما من إجابة واحدة..

أحس ببعض الصداع الخفيف في رأسه.. العمل كان كثيرًا اليوم، وها هي تضعه، ببساطتها المعهودة، أمام لغز طريف لا يعرف كيْف يحله.. كان الهدوء شاملاً في مثل هذه الساعة المتأخرة من أحد أيام ديسمبر الباردة.. ومع تعبه، بدأ يستسلم للمسات النعاس المخملية.. أعاد رأسه إلى الوراء، وارتكن بها على مسْند المقعد الخلفي، وأغمض عيْنيْه، ورويدًا رويدًا بدأ يروح في سبات عميق..

..*

ثم بدأ يحلُم!..

..*

وفي الأحلام أحداث وآفاق، كأنها أقدار أسطورية نساق فيها.. فها هو ذا يقف أمام قصر كبير متشح بالسواد، بينما السماء سوداء تمر فيها سحابات

هائلة في حجمها.. ركام بعضه فوق بعض، فلا تتبين السماء أو النجوم من خلفها.. غيامة رمادية تحيط به فلا تكاد يتبين المرء منها كف يده.. وبين الحين والآخر يقطع السماء والصمت شعاع من النور الأبيض الباهر لبرق خاطف يعقبه قصف الرعد الهادر.. سجد لله تعالى، أنْ يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته..

ريح شديدة تعبث به عبثًا، ولا يملك سوى أنْ يحاول أنْ يملك نفسه فلا يطير معها إلى ذلك المجهول الأسود الذي يحيط به من كل جانب.. أمطار غزيرة.. تكتمل بها الصورة المخيفة التي تحيط به..

لكن منذ متى تخيفه هذه الأشياء؟!، وهو الذي واجه ما واجه في حياته.. هكذا حدث نفسه وهو يقف بباب القصر محاولاً فتحه.. قرأ بعض الآيات القرآنية، شعر بعدها أن الثقة تملأ روحه.. إلا أنه بقيت أمامه وقائع لابد له من أنْ يتعامل معها، وأسئلة لابد له وأنْ يجيب عنها.. مثل: أين هو، وما الذي جاء به إلى هنا، والأهم، كيف ماذا سوف يفعل؟!..

وقف في مكانه حائرًا، استدار لكي يعاود محاولته فتح باب القصر، إلا أنه، وللغرابة الشديدة، لم يجد القصر في مكانه.. كان بدلاً منه هناك مساحات واسعة من الأرض المزروعة بنباتات شيطانية غريبة المنظر.. وبين كل مساحة منها كان هناك فوهات غامضة تتلاعب فيها ألسنة برتقالية من الضوء المتذبذب ذكرته بوهج النيران.. كلا بالفعل هناك نيران في هذه الفوهات..

وعلى مرمى البصر، كانت هناك كتل من السواد تملأ الأفق.. كلا ليس كل الأفق؛ فهناك إلى أقصى اليمين من المشهد أمامه، كانت هناك بقعة من الضوْء الأبيض الباهر الذي كان شديد الوضوح برغم من بعد المسافة التي تفصله بينه وبين صاحبنا؛ حتى ليُّخيل إلى الناظرين أنها مدينة كاملة يملؤها النور والناس والصخب..

كان هذا الضياء مألوفًا له.. إلا أنه لم يكن قادرًا على تمييزه بشكل واضح بفعل مياه الهتون الذي يهطل فوق رأسه مبللاً عينيْه ومتغلغلاً إلى عظامه ذاتها..

لم يكن هناك أمامه ما يفعله سوى أنْ يبدأ في المسير إلى هذا النور؛ لعله واجد هناك النجاة، أو على الأقل بعضًا من الإجابات التي يطلبها لأسئلته..

..*

وبدأ المسير..

..*

كانت المسافة أطول مما توقع.. كان بينه وبين النور الباهر الذي يراه مساحات شاسعة من الأرض البور الغائصة إلى أسفل.. كرر لنفسه وهو يسير بصعوبة فوقها.. لن أخاف.. لن أخاف.. قالت لي أمي ذات يوم ألا أخاف..

تلال عالية سوداء.. غابات من الأشجار العالية الرمادية المعادية التي اتخذت صفة وهيئة محاربين أسطوريين يتربصون به.. طيور سوداء عملاقة تملأ جو السماء.. غاضبةً الملامح كئيبة.. يحاول أحدها أنْ يدنو منه، إلا أن

لسان برق يضربه، فيحرقه على الفور، مطلقًا صيحة احتضار هائلةً.. لكني لن أخاف.. لن أخاف يا أمي..

الرياح الهائلة من حوله ترقص رقصتها العاصفة، محركةً السحب والغيامات في السماء من حوله من مكان لآخر بسرعة البرق الخاطف الآخذ في الازدياد، بينما الرعد يقصف، ويقصف ويقصف من دون توقف.. ألوان الأفق والسماء تتبدل من السواد إلى الرمادي والعكس في لحظات، وكأنها سحب دخان تتحرك وتمتزج وتصعد لأعلى ثم تهبط إلى أسفل كالشلال فجأة..

الحفر الهائلة الممتلئة بالنار التي حاول جاهدًا ألا يقع في واحدة منها بفعل الأرض الزلقة التي تحولت إلى فخ حقيقي بفعل الأمطار.. خيالات شيطانية لفتيات جميلات تنادينه من بعيد.. يغنين له.. يلوحن له، لكنه لا يستجيب لهن.. أظافر طويلة سوداء تملأ أطراف أصابعهن.. يبتعد عنهن.. وتكتمل الصورة بكلاب سوداء ضخمة تنبح عليه من بعيد.. فقط تنبح، لكنها لا تقترب.. لنْ تجرؤ على ذلك لأنه..... لنْ أخاف.. لنْ أخاف يا أمي..

..*

وبرغم كل شيء.. اقترب.. اقترب من هالة النور الوضاء هذه.. ومرة أخرى عاوده ذلك الشعور الذي راوده من قبْل.. تلك الهالة تشبه شيئًا ما.. أو أحدًا ما.. ومع المزيد من الاقتراب، كان الضياء الأبيض الصافي الذي كان يشبه القمر لو اقتربنا منه، يزيد وضوحًا في معالمه.. وخيل إليه- برغم المسافة- أنه يحمل في دائرته ملامح حبيبته الجميلة البريئة..



شعر براحة بالغة عندما تذكرها.. مشاعر فياضة من الحب والأمان والراحة والجمال ملئتْ مشاعره.. وفجأة تبدل المكان من حوله.. في البدء راحت بقعة الضوء تكبر.. لا لم تكبر فحسب، بل كانت تقترب منه أيضًا..

في البداية بدأتْ بقعة النور في إضاءة الأفق.. ثم بدأ الضياء في إذابة الظلمة الحالكة من حوله، لم تعد ظلمة معادية كما كانت.. ثم بمعجزة من معجزات الخالق العظيم، بدأت مياه الأمطار الغزيرة التي كانت تهطل في التسرب في فوهات حفر النيران من حوله فتطْفئها بلا دخان..

الريح القاسية بدأت في التحول إلى رياح طيبة أخذت تهدأ في ضربات القدر التي كانت توجهها إليه وتحاول بها أنْ تقتلعه اقتلاعًا، وفي المقابل كانت لا تزال عاتية على المقاتلين الأعداء، وراحت تقتلعهم هم من جذورهم ملقيةً إياهم على مسافات متفاوتة من حوله..

الأرض البور تخضر من حوله.. ونور الخالق العظيم يملأ الكوْن من حوله تدريجيًا.. هدأت الرياح بعد أنْ اقتلعت كل الأعداء وألقتهم بعيدًا، بينما الطيور السوداء العملاقة ترحل بعيدًا، فيما الحياة تدب في الأرض البور من حوْله.. زهور جميلة تتفتح بينما بعض مخلوقات الأرض تخرج من أوكارها لتلعب من حوله، بينما هو يراقب الأفق في شغف وحب..

العالم من حوله يتحول إلى فجر يوم جديد بارد، ولكنها ليست تلك البرودة القاسية.. فقط لمسة برد ملأت روحه انتعاشًا.. كل هذا ووجه حبيبته يقترب، ويقترب.. الضياء القادم من خلف الأفق تحول بالفعل إلى



وجه حبيبته بدون أدنى شك.. كانت تقترب حاملة معها الضياء والدفء والأمان.. ورويدًا رويدًا راحت تملأ الأفق.. متجددةً كأنها هي ذاتها أبهة الربيع المهيبة كما قال الرعاة في الماضي وهم يصوغون أبيات أغاني الحياة..

..*

ثم أشرقت الشمس..

..*

عندما أطوف العالم..

عندما أرى كل شيء..

أعود إليك..

لأنك وطني..

يا أرض الضياء..

محمود سالم (بتصرف)

..*

الوجه القادم من خلف التلال التي صارت مغطاة بغلالة خضراء تملؤها نقاطًا حمراء وصفراء وزرقاء، هي في الواقع باقات من الزهور النادرة، بدأ يتحول إلى كيان كامل، وراحت حبيبته تهبط رويدًا رويدًا أمامه، بينما العالم من خلفها يتحول إلى ساحة لبهجة العيْن والنفس وكل الحواس الإنسانية السامية..

..*



أيها القدر..

جراحي التي ألحقتها بي أيها القدر..

في الربيع.. تمحوها- أنت أيضًا- بالربيع الوضاء..

وبوجه حبيبتي الذي يملؤه النور..

الشمس تلطف كل شيء..

اتظر- أيها القدر- إلى الربيع الفتان..

إلى التلال والمروج الخضراء..

وقل لي.. أهذا أجمل.. أم وجه حبيبتي؟!..

الكاتب متأثرًا بأبيات من أشعار الـ"كارمينا بورانا"(١)

..*

(١) كارمينا بورانا: "كارمينا" في اللاتينية تعني "أشعار" و"بورانا" كلمةٌ ألمانيةٌ قديمةٌ تعني "دنيوية"، والـ"كارمينا بورانا"، تعني "أغان دنيوية" وتعود أصول هذه المجموعة الشعرية إلى العصور الوسطى؛ حيث صيغت باللاتينية على أيدي رعاة الجوليارد، في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي، ثم نقلت إلى الألمانية عندما تم اكتشافها في دير "بندكتيني" في مدينة بورين في إقليم بافاريا جنوب ألمانيا، وقد جمعها الشاعر الألماني يوهان أندرياس شميلر، وطبعها عام ١٨٤٧م، ووضع لها الموسيقار الألماني العالمي كارل أورف (١٨٩٥- ١٩٨٢م) لحنًا عُرِفَ باسم "الكانتاتا" أو "الفورتيونا"، ونال شهرةً واسعةً؛ حيث يُعتبر أفضل عمل فنِي موسيقي في القرن العشرين.



دنَتْ منه.. أو دنا هو منها.. لا يعرف.. فقط اقتربا، حتى أصبحت أمامه مباشرةً.. نظر إلى عينيْها السوداويْن البريئتيْن، فخفضت هي عينيْها في حياء.. التقط كفيْها بين يديه.. تطلع إلى الندى الذي كان يغطي رأسها.. زهرة زرقاء نادرة هي.. لم يتكلما.. فقط راحا يتطلعان إلى الأفق والشمس البازغة فيه، مفكرين في الآمال والأمن والدفء الذي يمنحه ضياؤها..

غنى لها، واستمعتْ هي له.. غنى لها مقاطع من أغاني الشعراء القدامى.. قال لها: "منذ زمن بعيد يا سيدتي.. تبرْهن لي زهرة عمرك على الوفاء.. على الضياء.. لذلك أنا متمسك بك.. كتمسكي بالشمس الوضاءة من حولي في يوم شتوي كان مطيرًا.. أنا هو من يحبك.. أنا لك.. ولن أكون لأحد آخر"..

..*

انظر الربيع الفتان..

هيا انظر.. فالأفراح تعود..

بصحبة الربيع الفتان..

فاشتياقنا إليه قد طال..

المرج يتألق بشرارات أرجوانية..

وتنقي الشمس كل الكائنات..

فهيا انصرفي أيتها الأحزان..

فالصيف ينبعث إلى الحياة..

ولينهزم زمهرير الشتاء..

من الـ"كارمينا بورانا"

..*

ثم انتهى الحلم فجأة.. كما بدأ فجأة..!!..

..*

كانت الساعة تقترب من السادسة صباحًا عندما استيقظ.. كانت خيوط الفجر الأولى قد بدأت تملأ الأفق، بينما النوافذ الزجاجية العديدة التي يحرص دائماً على أنْ تدْخل النور إلى حياته، تقول له إن يومًا جديدًا قد بدأ..

لم يدر حقا هل كان يحلم أم أنه ارتحل بالفعل إلى عالم آخر، وخاض هذا الموقف لكي يشهد وجه حبيبته، ويقف معها على تلك الربوة لكي يشهدا معًا فجر يوم جديد وربيع متجدد أتى إلى هذه الدنيا؟!.. لا يدري.. حقا لا يدري.. لقد كان الحلم من الوضوح، بيث اختلط عليه الأمر فعلاً.. ولذلك، وبرغم قناعته أنه كان يمر بحلم، فإنه كان على يقين من أنه لم يكن هنا في تلك الليلة.. روحه على الأقل تسامت إلى ذلك المكان البعيد.. ذلك العالم الآخر الذي أنقذه فيه وجه حبيبته..

لم ينم مجددًا هذا الصباح.. وراح أولاً، يدون حلْمه هذا بسرعة محمومة قبل أنْ ينساه.. وعندما انتهى، كان موعد عملها هي قد أزف.. هو إجازته

اليوم، إلا أنه انتظر دخولها على برنامج المحادثة لكي يسألها عن حلْمها، ويخبرها عن حلْمه هو..

دخلتْ.. رأى وجه الطفلة الذي وضعته هي كصورة لمحادثتها.. كانت الطفلة تشبهها إلى حد كبير.. حدثها سألها.. لم تجبْه.. لم تخبره ما هو حلمها هذا.. لم يسأل كثيرًا.. كفاه أنه يكلمها.. فقط يكلمها.. كفاه أنه هناك في عالمها الرائع المبهر.. الذي يضيئه النور..!!..

ثم قال لها في نهاية المحادثة: "يا سيدتي.. هل تعلمين ما هو الحلم حقا؟".. لم ترد.. كالعادة لم ترد، إلا أنه أحس بخجلها، وقد خمنتْ ما سوف يقوله.. ولكنه لم يهتم هذه المرة كثيرًا، وأجاب على السؤال الذي سأله هو نفسه: "إنه أنت يا سيدتي.."..!!..

..*.*.*

هامش:

وا لهفي علي.. فمن سيخلصني من الهوى؟!.. في الواقع.. أنا لا أرغب في أنْ يخلصني أحد!!..

..*.*.*

القاهرة في:

الثلاثاء ١٥ ديسمبر ٢٠٠٩م

ذات ليلة وصباح

لم أنمْ كثيرًا هذه الليلة.. سهرت مع الكتب التي أحبها، وصوت أم كلثوم وهي تتغنَّى بكلمات أبو فراس الحمداني على ألحان رياض السنباطي.. ثم غفوت قليلاً.. استيقظت قرب الفجر على صوت بعض رعاع الشارع.. لكني لم أكرههم.. أحببت حريتهم في هذا البرد، وهذا التوقيت، فقررت تقليدهم.. فصلَّيتُ الفجر وجلست أقرأ قليلاً وأنا أستمع إلى إمام المسجد المجاور وهو يتلو القرآن الكريم في هينُمات جميلة..

ثم، بعد أن بدأت خيوط النهار تشق أجواز المكان من حولي، ارتديت قطعة ملابس إضافية من الصوف أسفل البيجامة القطنية المقلِّمة طوليًّا التي اشتريت اثنين منها من "عمر أفندي" قبل عامَيْن أو ثلاثة.. البُنِّيَّة منهما.. ثم نزلت الشارع وغبشة الفجر لا تزال وليدة..

بعض الناس مجهولي الهوية يسيرون بسرعة محاذرين البرد، حاملين وجوههم الخاوية إلى مكان ما.. بعضهم كان يلف وجهه بتلفيعة صوفية، فكنت لا أرى منه سوى عينيه.. ولكني عندما وصلت إلى شارع "الثلاثيني" الكبير المجاور لنا، استيقظت حواسي على بيئة ثرية من المفردات.. محال الفول



والطعمية التي تفتح مبكرًا، أو التي لا تغلق ليلاً تبدأ في إعداد متطلبات يوم الجمعة لإطعام آلاف الأفواه الجائعة التي تعيش في مربعنا السكني.. روائح الطعام المألوفة مع روائح القهوة والمعسِّل من بعض المقاهي التي تسهر بالذات ليلة الخميس إلى الجمعة.. الصعايدة لا ينامون كما يبدو.. بعض محال البقالة التي تفتح مبكرًا..

كنت أشعر بالجوع، فأفطرت في واحدٍ من هذه المحال، ثم اشتريت بعض الأشياء الجميلة، مثل مناديل ورقية، وعلبة من الزبادي وأكياس "شامبو" صغيرة، ثم قفلتُ في طريقي إلى الرجوع..

أثناء عودتي إلى المنزل، كانت فقرة الشيخ محمد رفعت الصباحية قد حانت في إذاعة "القرآن الكريم"، فاستمتعت بسماع صوته الندي الذي يبعث على السَّكِينة في هذه الساعة المبكرة من اليوم، وفي هذا البرد..

أحب صوته وهو يمتزج بمنظومة الحواس المنبعثة من الأماكن من حولي.. صوت مقلاة الطعمية الضخمة وماكينة طحن الفول المجروش لصناعتها من إحدى محال الفول والطعمية.. بعض السيدات والرجال من حرَّاسي العقارات المجاورة ينظفن ما أمام المنازل.. صوت دراجة بخارية هنا وصوت "توتوك" هناك يمر من بعض ممزقًا لوحة الهدوء والبرد هذه.. طفل يجلس أمام باب منزله يلعب بدمية ما في يده.. أحدهم بغمغم بشيءٍ ما في هاتفه المحمول.. يبدو أنها زوجته وهو عائد من عمله الليلي، تطمئن عليه..



لكن الأشجار جرداء للأسف بفعل رياح الشتاء العاصفة، وإلا كان قد اكتمل المشهد الجميل..

وصلت بيتي المنظَّم الأنيق، وشعرت بدفئه ورأيت نظافته، فحمدت ربي.. شعرت بأشيائي وكأنها كانت تنتظري في شوق برغم من أني لم أغبْ عنها كثيرًا.. غسلت يدي ووجهي "مطرح المشوار"، ثم فتحت قناة إخبارية دولية أستمع إلى الأخبار، وأكتب هذه الكلمات، مع فنجان من القهوة المزدوج صنعته على نار هادئة.. بعد قليل، أبدأ في الاستعداد لزيارة معرض الكتاب.. أشعر الآن بأن الله تعالى أكرم بما لا يمكن تصوره؛ فلك الحمد يا رب"..

القاهرة في:

الجمعة ١ فبراير ٢٠١٩م

رجل ما بعد المحرقة.. مشهد أول

عثر عليه جالسًا جوار كهف صغير في جانب التلة المشرفة على النهر القريب.. كان عجوزًا هَرِمًا يبدو وكأن عمره ألف أو ألفان عام..

لم يفلح عقل رامي الصغير في استيعاب غرابة الموقف.. لذلك جلس بجانبه في بساطة، وقال له: من أين أنت يا جَد؟!.. لم يرد عليه.. فقط استمر فيما كان يفعله، وهو رسم أشكال غريبة بأصابع يديه باستخدام الحصى القريب..

لم يكن الطفل يفهم ماذا يفعل ولا كيف يفعله.. جرب أكثر من مرة أن يرسم أشياء بواسطة الحصى مثلما يفعل الرجل؛ إلا أنه فشل، فعاد يلح عليه بالسؤال: من أنت يا عماه؟!.. وماذا تفعل هنا؟!.. وكم عمرك؟!..

لم يجِب أيضًا.. فقط قال في نفسه: يالَصداع!!.. كان يشعر بصداع قاتل بعد رحلته الطويلة العجيبة التي ألقت إليه في هذا المكان، وهذا الزمان، وفي كل الأحوال - هكذا حدَّث نفسه - فلن يفهم الطفل لو قال له من هو أو من أين أتى..

استمر في صمته الطويل، حتى أصاب رامي الملل، وكف عن الدوران حوله كالنحلة، وسؤاله عن كنهه.. فقط جلس إلى جواره في صمت يتأملان معًا الأفق البعيد الذي بدأت تغيب ملامحه مع الشمس الغاربة..

وبعد صمت طال؛ بدأ العجوز في الكلام.. بدا وكأنه يكلم نفسه والجمادات التي من حوله أكثر ما كان يكلم ذلك الطفل.. كانت هذه الجمادات في نظره أكثر حياة من أي شيء آخر بعد ما رآه في رحلته الطويلة.. على الأقل هناك نهر وهناك نسيم.. صحيح أن شاطئ النهر أجرد من دون ذلك اللون الأخضر الجميل؛ إلا أنه كان يحمل رمز الحياة الأبدي.. الماء..

قال له أشياء كثيرة لم يتذكرها عقل رامي الصغير، ولكنها كانت مبهرة له.. قال له إنه من عالم كان فيه الناس يحبون بعضهم البعض، ويحلمون.. قال له إنه من أرض أخرى كان فيها البشر سعداء؛ يزرعون الورود في الصباح ويقطفونها في المساء.. عالم كان فيه أشياء غريبة لم يستوعبها عقل الطفل الصغير، مثل الرسم والشعر وجمع الفراشات..

ساعات طويلة قضاها إلى جواره حتى هبط الظلام؛ يستمع إلى كلام هذا الكائن المدهش الذي ألقاه له القدر.. سأله أسئلة عديدة عن معنى "الحب" و"الفراشات" و"الابتسامة" و"الرسم"؛ فقال له في وهن وقد بدأ يغيب النور من عينيه: سأحكي لك كل شيء يا ولدي؛ فقط على أن تعدني وعدًا.. ثم صمت لحظة؛ التهم فيها الفضول الطفل.. سأله في إلحاح: وما هو يا جَدِّي؟!..

قال له في حزم برغم ضعفه: ألاَّ تخبر أحدًا عني.. سأحكي لك كل شيء.. فقط ألا تخبر أحدًا أنني هنا، وإلا لن تسمع عني ثانيةً.. سأله: وهل ستعلمني الرسم هذا؟!.. قال له: نعم، وسوف أعلمك كيف تصنع بالألوان أشياء وأشياء لم تولد قط إلا في مخيلتك، وتخلق بها عوالم جميلة بعيدة عن ذلك الأصفر والبُنِّي الكئيب المحيط بنا.. سأعلمك كيف تصنع بالكلمات لوحات وتكتب بها حكايا جميلة.. سوف أصف لك الحمام الجميل وكيف يهدل مع مجيء الصباح.. شرط ألا تخبر أحدًا عني..

كان رامي يستمع إليه وهو مبهورًا بكل هذا الذي يقول.. وعده بإخلاص وانصرف وقد عزم ألا يخبر عنه أي أحد.. قد يقول للولو، صديقته الصغيرة مثله، ويجلبها معه ذات مرة لكي تستمع معه إلى هذا الرجل المدهش، ولكن حتى ذلك الحين؛ سوف يظل هذا الرجل هو سره الصغير، وكنزه الذي لا يقدَّر بأي مال!"..

القاهرة في:

الثلاثاء ٢٧ سبتمبر ٢٠١٦م



رسالة إلى أُمٍّ لم تنجبه!

"... تتساءلين عن جنوني، وعن لا منطقي، وأنا الرجل المنطقي.. يا طفلتي، أنا لن أستطيع التوضيح. ولا أحد يطالبك بالتفهُّم؛ لأن الأمر أكبر من طاقة استيعاب الإنسان. أي إنسان. أنتِ لا تفهمين قضية مهمة، وهي أثر كونك بشخصك، وبما تمثلينه لديَّ، عندما تكونين موجودة، بطريقة البَيْن بَيْن هذه. في مثل هكذا لحظات؛ ينتاب الإنسان نوبات من الجنون وعدم المنطق. المُعلَّق!.. هذا أنا.. الواقف عند المنزلة بين المنزلتَيْن.. أنا معكِ كالذي يطلب الماء وما هو ببالغه.. مذكور في القرآن الكريم أنه من أقسى طرق العذاب!.. وجودك هذا، بهذه الحال؛ صنو العذاب الدنيوي والأخروي!..

من أنا من فنانين يُروى عنهم أنهم في لحظات جنونهم؛ كانوا – في لحظات يأسهم – يمزقون لوحاتهم بعد أن ظلوا يرسمون فيها دهرًا؟!.. أدباء يحرقون أوراقهم.. من أنا منهم؟!.. إن عقولهم تكون تتطلع إلى لقطة معينة، أو نغمة معينة، أو جملة معينة؛ تراودهم ولكنهم غير قادرين على بلوغها؛ فيكون الجنون!..

وجودك وأنا غير قادر حتى على البَوْح، أو ملامسة يدَيْك، أو التطلع إلى عينيكِ.. مثلما تنسين لحنًا ما، وتحاولي أن تتذكريه. يكون قريبًا. لكن لا تتذكريه. يبتعد ويأتي.. وهكذا؛ فيكون – كذلك – الجنون!..

هل تتصورين طفلاً تغيب عنه أمه، ويجلس في الظلام وحيدًا، يبكي خائفًا، وتطول به السنون في غيابات جُب الخوف والحزن، ثم يجدها فجأة أمامها، بسماتها، بملامحها، بكل شيء.. كيف تتصورينه يفعل ويشعر؛ وهو في النهاية طفل غير رشيد؟!..

أنا لا أحبك ذلك الحب الذي يعني الميل الفطري إلى الآخر؛ بل هي حالة غريبة من الارتباط. الانتماء.. نعم؛ أنا أنتمي إليكِ، حالة تدفع – لفرط هذا الارتباط وهذا الانتماء – صاحبه لأن يبتعد ولا يقترب في كثير من الأحيان، عندما لا يكون بقادر على أن يتحرك إلى الأمام المزيد من الخطوات..

طفلتي؛ كالعادة ليس مطلوبًا منكِ أي شيء، ولا أي رد على كلماتي هذه، لكني أقول لكِ؛ أنتِ لا يمكن أن تمنعيني عنكِ حتى لو اختفيتِ أنتِ، أو ابتعدتُ أنا.. حتى لو ابتعدت أنا في نوبات جنوني ويأسي المتكررة.. أنتِ ملكي؛ ليس بأي منطق سلبي. لكن بكل منطق جميل وطيب.. أنتِ قريبة جدًّا وفي كل مفردات عالمي.. وجودك أو عدم وجودك "الفيزيقي"؛ لا يحدِث فارقًا كبيرًا.. فقط أقول إن الخيارات المستحيلة التي فيها أمرك عندي؛ تدفع الإنسان إلى الغريب من الأمور والسلوك.. أحبك أمي"..

طفلتي؛ كالعادة ليس مطلوبًا منكِ أي شيء، ولا أي رد على كلماتي هذه، لكني أقول لكِ؛ أنتِ لا يمكن أن تمنعيني عنكِ حتى لو اختفيتِ أنتِ، أو ابتعدتُ أنا.. حتى لو ابتعدت أنا في نوبات جنوني ويأسي المتكررة.. أنتِ ملكي؛ ليس بأي منطق سلبي. لكن بكل منطق جميل وطيب.. أنتِ قريبة جدًّا وفي كل مفردات عالمي.. وجودك أو عدم وجودك "الفيزيقي"؛ لا يحدِث فارقًا كبيرًا.. فقط أقول إن الخيارات المستحيلة التي فيها أمرك عندي؛ تدفع الإنسان إلى الغريب من الأمور والسلوك.. أحبك سيدتي"..

القاهرة في:

الأربعاء ٢١ مارس ٢٠١٨م



رسالة إلى "امرأة الفنجان"

كان في لحظات ضعف، وكان أن جاءت.. وكان أن استبدتْ به المشاعر إزاء ما أبدته من كرم استخلصه من حالته هذه التي كاد معها أن يحطِّم كل شيء بناه طيلة الفترة الماضية، بعد أن أنقذته من موتٍ نفسي بل وموت نفسٍ حقيقي.. فكانت منه هذه الكلمات إليها:

".. وكانت أعظم لحظات حياتي كإنسان بالكامل لو تتصورين، عندما انفعلتي انفعالاً صادقًا مع كلماتي، ومع لحظات ضعفي وركوني لليأس وقلتِ لي إنكِ تريدين أن تراني..

أما تفسير هذه العبارة، فهو كثيرٌ، ويُقال عنه الكثير، لكني لن أضيف، فأنتِ برغم لُطْفُكِ وبراءَتُكِ؛ فأنتِ امرأة ذكية جدًّا، وسوف تشعرين بما شعرتُ به منكِ لما قلتيها.. شعرتكِ بحق، شعرتكِ أمًّا تتمنى أن تضم وليدها.. أمًّا مُحِبَّة..

عباراتك أدخلتني إلى جوهر إحساسك ومشاعرك الحقيقية إزائي.. أحسستُكِ من دون أية تفاصيل أو تعقيدات.. أحسستُ أنكِ تتمنِّين لو تضميني..

فأنتِ يا سيدتي كريمة، وكريمة جدًّا.. مشاعرك تفيض على ما حولك.. فيكِ جاذبية، وإشعاع.. في الماضي، عندما رأيتك قبل سنوات بعيدة، لم أدرِ

ما الذي جعلني ألتفت إلى المكان الذي كنتِ تجلسين فيه.. أنت تفيضين نورًا وعشقًا.. كل مَن رأَوْكِ قالوا ذلك.. تمنُّوا منكِ ولو كلمة.. تمَنَّوا أن يكونوا شركاء العمر.. أن يكونوا خدمًا للسيدة.. كلنا نريدك في حياتنا بأية صورة..

أمَّا عن أمركِ عندي؛ فأنتِ أمي، وموئلي الحقيقي.. بكِ صرت أقوى.. بل لأجلكِ صرت أقوى.. تقولين إنكِ تريديني أفضل.. أنا بالفعل بالفعل الآن أفضل.. بكِ أنا أكون أفضل.. بكِ أكتفي أصلاً، فأنتِ عظيمة في ذاتك، ولا يجد الإنسان في نفسه معكِ حاجة لأي شيء آخر معكِ..

لمَّا، اخترت لكِ كلمات نزار لكي أصفكِ بها؛ لم أكن أُبالغ.. أنتِ هي تلك المرأة التي دوَّخت الدنيا.. امرأة الوجع.. أهم امرأة في الدنيا.. أنت المرأة الأسطورية التي رأتها قارئة الفنجان لصاحبنا؛ فجُنَّ ثم انتحر لأنه لم يكن بعد واجدها.. أنت المرأة الحلم، المرأة التي نراها ذات ليلةٍ في مخيلتنا، ونستيقظ لكي يبقينا طيفها.. فقط طيفها، على قيد الحياة!..

إنني أمام ما اصطفيتني به، واختصصتني به من مشاعر، من دون العالمين، لا أجد عندي أمنحه إياكِ إلا عهد الإخلاص والوفاء.. أحبك يا سيدة.. أحبك وأقسم على أن أخلص لكِ للأبد"..

القاهرة في:

الخميس ٢١ فبراير ٢٠١٩م

رسالة على غير ميعاد!!

كتب في لحظة ضعف وشوق معًا لحبيبته يقول لها: "أشتاق لأن أرى كيف أصبحت الشمس تشرق في عينيكِ.. أتلف لمعرفة كيف بات ينعكس ضوء القمر على وجنتيكِ.. جبهتك الوضاءة.. أشتاقها.. بشدة.. سنوات تمر، ولابد أنكِ ازددتِ فيها حسنًا وبهاءً.. تزدادن الأشجار بأخضر الربيع، وبالتأكيد ازدان وجهك حُسنًا وبهاءً..

طفلتي الجميلة.. هل لا تزالين تذكرين ضحكات ضحكناها معًا؟!.. هل لا تزالين تذكرين كلمات قلناها معًا؟.. خطوات مشيناها سويًّا؟!.. هل لم تزالين تذكرين طفلك الجميل من الأصل؟!..

سيدتي ألا تردين؟!.. ألا تفهمين أنه ليس هناك بعدك من أحد؟!.. أبتذل نفسي وكلماتي.. ولكن من قال إن الحب به كبرياء وكرامة؟!.. تركتها خلفك حين انصرفتي على غير ميعاد!..

ثم كتب قائلاً لها: أحبك.. حبًّا سرمديًّا مغامِرًا.. وللأبد..!

القاهرة في:

السبت ١٧ مايو ٢٠١٤م

أغانٍ دنيوية!

جَلَسَ إلى مكتبه يكتب هذه الرسالة.. الرسالة التي يعتبرها أهم رسالة كتبها في السنوات العشر الأخيرة من عمره.. عمره هذا الذي يزيد بأعمار كاملة عن سنواته الحقيقية مع كل ما رآه وعاشه فيها..

لم يدرِ حقا، وهو جالسٌ يكتُب، أية كلمات يكتُب؟!!؛ فهو هذه المرة يكتُب لإنسانة لا تعرفه، ولم يسبق له أنْ بادلها الكلمات.. الكلمات التي يعتقد هو أنها أغلى من أي شيء آخر في هذه الحياة.. ولذلك جلس حائرًا.. من المرات النادرة جدًّا في حياته التي يكون فيها حائرًا على هذا النحو.. ولا يدري لماذا؟!.. وتساءل بينه وبين نفسه ذات السؤال؛ لماذا هذه الحَيْرة؟!..

تدبر في أمره كثيرًا، وفكر.. هل الحَيْرة تعود إلى غرابة الموقف؟!.. أم إلى طبيعة الشخصية التي ينوي الكتابة عنها.. أو ربما لها؟!.. هل يعود إلى عدم منطقية ما يشعر به في هذه الأيام؟!.. أم لهذه الأسباب جميعًا؟!.. أم لعل هناك أسبابٌ أخرى لا يعلمها هو نفسه؟!.. ما أغرب النفس البشرية وما أعقدها!!.. لا يوجد فيها حدودٌ ومعالمٌ واضحةٌ.. لا وجود فيها للأبيض والأسود.. بل الكثير من المساحات الرمادية الشاسعة والمُتباينة في درجاتها،

والتي نتوه فيها، ونعجز عن تحديد معالمها، بحيث لا يمكن لنا أنْ نفهم فيها نحن أنفسنا بحق!!..

الكثير من الفلسفة والاستطراد.. هكذا حدث نفسه، وهو يكتب هذه الكلمات، إلا أنه بالفعل لا يجد نقطةً للبدء، ولا يجد في نفسه مهارة الإمساك بناصية القلم كما اعتاد.. جلس صامتًا قليلاً كما اعتاد عندما يجد أمامه معضلةً ما.. أغمض عينيه وأراح رأسه للوراء.. وبعد دقائق، وجد البداية..

..*

كانت البداية ذات يوم من أيام شهر ديسمبر.. يوم جمعة تحديدًا.. لم يكن الجو قد صار باردًا.. في الأصل الشتاء تقلص في بلادنا كثيرًا.. اليوم يبدو بهيجًا إلى درجة لا تُوصف؛ فقد كانت الشمس ساطعةً، مع مسحة برد منعشة تُوقظ في النفس شجونًا وحنينًا لسنوات بعيدة مضت، بينما نسمةٌ جميلةٌ تُداعبُ المارة والشوارع والأشجار، فيما يلعب من حوله بعض الأطفال الكرة، مستغلين رائعة النهار هذه، والتي توافقت مع يوم إجازتهم من المدرسة..

تنهد، وتذكر أيامًا خواليَ كانت له فيها أمٌّ جميلةٌ باسلةٌ، تجعل من أيام الشتاء والمدرسة بمثابة جنة أرضية لهذا الطفل الذي كانه في يوم من الأيام.. تبتاع له البرتقال الأصفر والقصص الجميلة التي يحبها.. أُمه التي علمته كل ما يعرف، وقالت له أنْ يحاول أنْ يتعلم ما لا يعرف.. لقد مضتْ تلك الأيام، فلا تحاول يا صاح.. لا تحاول..

هكذا حدث نفسه وهو يسير في شوارع القاهرة شبه الفارغة من يوم الإجازة الأسبوعية، وإنْ بدأت الحياة تدب فيها قليلاً بعد انتهاء صلاة الجمعة، وخروج الناس من المساجد لأداء باقي طقوس هذا اليوم.. الوقوف أمام المساجد بانتظار الأخوة أو الأصدقاء أو الجيرة، والذهاب لشراء طعام الإفطار، ثم مشاهدة برنامج الشيخ شعراوي على القناة الأولى.. إلى باقي هذا البرنامج الذي يحمل أجواءً حميميةً لا تُوصف.. ما أعذب الأسرة المصرية وما أطيبها.. لكنه يفتقد كل هذا الآن.. هو الآن صار وحيدًا بلا صحبةٍ.. ولكنها ضريبة الحرب التي خاضها في سنوات عمره الأخيرة.. حرب ماذا؟!.. تتساءلون يا سادة.. فأقول لكم إنه لا يزال الوقت مُبكرًا على معرفة كل التفاصيل عن صاحبنا هذا.. فقط لِنَعِش معه هذه اللحظات..

جميلةٌ جدا القاهرة.. هكذا حدث نفسه وهو يسيرُ.. رائعةٌ.. فقط عندما تستعيد بهائها كمدينة تاريخية طبعت بصمتها على الإنسانية كلها.. هو يحب مدينته هذه كثيرًا، ويبغي أنْ يعيش ويموت فيها.. عندما تخلو من الرعاع والسوقة الذين احتلوا أركانًا عديدةً من عالمه القديم.. لذلك هو يحب القاهرة ليلاً.. في الليل السحيق عندما يختفي هؤلاء، ويحبها أيضًا في أيام الإجازات، عندما تخلو وتصبح مدينته هو وحده، كما كانت قديماً..



واستمر يسير.....

..*

نسينا أنْ نقول إن اليوم أيضًا هو أول أيامه في عمله القديم الذي عاد إليه أخيرًا، واليوم سوف يلتقي صُحبةً طالتْ غيبته عنها.. "منعم".. "جبريل".. "عطا".. "حسين" السائق.. "محمد علي" الذي يطلقون عليه اسم "طلحة" لتَدَينِه.. هو نفسه أطلق عليه هذا الاسم قبل عام مضى، وغيرهم الكثير من الوجوه التي افتقدها في غيبته التي قاربت العام..

لم يكُن يدري وهو يقترب من عربة "الميني باص" التي سوف تُقله إلى عمله أنه سوف يلقى وجهًا جديدًا في حياته.. وجهٌ جديدٌ، ولكنه ليس كأي وجه.. وجهٌ قد يُغير الكثير من مسارات حياته، وقد يُحدِثُ في حياته نُدبةً.. نُدبةٌ غائرةٌ قد تُضاف إلى ما في نفسه من ندوب..

..*

كان يجري لكي يلحق بالعربة، فقد كادت أنْ تفوته؛ إلا أن حسين السائق، ذلك الشاب الملتحي الطيب، كان أصيلاً، وانتظره.. ارتقى درجات سُلم العربة كعادته، ثُم...... ثُم وقعت عيناه على... على ماذا؟!... هو لا يدري ولا يعرف للآن كيف يصفها.. كل ما يذكره فيها هو عيناها.. عينان سوداوان واسعتان.. شديدتا التأثير.. مر عليها سريعًا، وإنْ تركت أثرًا عميقًا في نفسه، فلم يكُن ليتخيل أنْ تكون هناك "مفاجأةٌ" بهذا الحجم في يومه الأول للعمل، لذلك جلس مرتبكًا إلى جوار النافذة على مقعد قريب منها تلقائيا.. رُبما لم يكُن يقصد ذلك، إلا أنه فعله..

طبعا تحول رأسه إلى خلية نحل طيلة الطريق.. من هي؟!.. وأين تعمل؟!.. وكيف السبيل إلى التعارُف؟!.. إلا أنه في النقطة الأخيرة عرف أن أمر التعارُف سيكون صعبًا للغاية مع ما أبدته من تحفظ طيلة الطريق؛ حيث لم تتبادل سوى بضع كلمات مع "عطا"، الذي فهم صاحبنا منه فيما بعد أنه تعرف إليها صدفةً في العمل، في موقف تطلب التواصُل بين قطاع الأخبار العربي الذي نعمل فيه، وبينها، حيث تعمل، في القطاع الإنجليزي..

..*

لا يدري كيف مر ذلك اليوم عليه في العمل.. كان حريصًا على عدم ارتكاب أية أخطاء في يوم عمله الأول، ولذلك مر عليه اليوم طويلاً جدا.. كان مُشتاقًا إلى رؤية هاتَيْن العينَيْن وصاحبتهما مُجددًا في رحلة العودة من العمل..

وفي رحلة العودة لاحظ هو عليها ذات التحفظ، ولاحظ أيضًا أنها نزلت من العربة في مكان ما من حي المهندسين.. مكان راق في حقيقة الأمر، بما أثار لديه الكثير من الأفكار حول طبيعة مستواها الاجتماعي، والمدى الذي يُمكنه هو أنْ يقطعه على هذا الطريق إذا ما أراد يومًا أنْ يأخذ خطوةً للأمام إزائها..

هو ليس قليلاً في هذا العالم.. ولكن... ولكن... ولكن... أحيانًا تكون للأحلام حدودٌ يا صديقي..



رآها في الأيام التالية.. وفي الأيام التالية أيضًا راحت تتملكه يومًا بعد يوم، حتى ملكتْ عليه أمره كله.. للأمانة كان صاحبنا يحاول قدر طاقته أنْ يتفادى الارتباط بها عاطفيا، خصوصًا بعدما عرفه عنها.. علم أنها على قدر كبير من الرقي المهني والاجتماعي.. عرف أنها طبيبةٌ ومن عائلة محترمة.. مثل هذه يا صاح - هكذا حدث نفسه - بحاجة إلى الكثير والكثير.. بحاجة إلى معركة!!.. على الأقل حتى يقنعها بذاته المُتواضعة في البداية..

..*

إلا أنه كان كُلما حاول النسيان والتجاوُز وجد نفسه غير قادر على الصمود أمام الجيوش الغازية التي تحاول أنْ تحتل مساحات وأراض شاسعةً من حياته.. ثُم انهارتْ السدود، ووجد نفسه مُهزومًا في أرض معركة لم يَخُضْها بعد.. إلا أنه، وهو الذي يكره الهزيمة مثلما يكره الشيطانَ، كان مسرورًا.. مسرورًا للغاية بهذه الهزيمة؛ حيث سمح لنفسه للمرة الأولى في حياته إلى الانسياق وراء مشاعر رَفيقة ورقيقة على هذا النحو.. مشاعرٌ جاءت مع صاحبتها في الوقت المناسب، لكي تروي أمطارها صحراء جرداء صارتها حياته منذ سنوات طويلة.. حتى ولو كانت صاحبتها لا تعرف..!!

قضى ليال طويلةً يتأمل في خياله عينا المَهاة اللتان تملكهما.. عينان سوداوان.. كلا، بل حالكتا السواد.. عالمٌ كاملٌ من السحر.. أرضٌ غامضةٌ لم يطأها بشرٌ من قبل.. أرضٌ تُنذر من يحاول أنْ يدنو.. فقط من يدنو، فما بالكم بما تفعله في من يجرؤ..؟!.. عينان مُشتعلتان تُشبهان في تأثيرهما تأثير عَينَيْ راسبوتين الذي سحر العالم كله ذات يوم.!!..

كان يراها وأحيانا لا يراها؛ فقد كانت مواعيدهما لا تتقفان.. لكنه كان يراها كل يوم خميس؛ حيث يراها في رحلة الذهاب والعودة من العمل، وبطبيعة الحال صار الخميس أهم يوم في حياته..

وكان كُلما رآها، تختفي الموجودات من حولها، وينشأ عالمٌ آخرَ من النور والجمال والبهاء.. نجومٌ ساطعةٌ.. سحاباتُ خيال هائمةٌ.. ونغمات موسيقى عذبة تنبعث من لا مكانَ مُضفيةً على المشهد خلفيةً رائعةً كصاحبتها..

كانت تُشبه زهور مروج وادي "نور جهاد" الأسطوري.. ذلك الوادي الذي وصفه "إدجار آلان بو".. هذا الشاعر والأديب الذي مات عندما فقد حبيبته التي كانت تمتلك عينان مثل عينَيْ مهاة وادي نور جهاد.. كان يملك من الدنيا فقط حبيبته، ومدينتها التي بناها بخياله إلى جوار البحر.. البحر الذي أخذها منه ذات يوم ولم يُعيدها له.. فمات!!..

..*

لقد ازدانت المروج بألوان زاهية..

مبتسمةً ابتسامات رائعة..

وحين تهفو العصافير وتطير..

تتجلى محاسن الحياة..

ويرقص الأطفال رقصات دوارةً..

نشعرُ معها بسعادة جمة..

من مجموعة أشعار "أغان دنيوية" أو "كارمينا بورانا" بتصرف

كان كثيرًا أيضًا ما يجلس ليُكلمُها.. يتوسمها أمامه وفي خلفيتها عالمٌ أبيضٌ بلون الصباح الندي شديد البهاء بشمسه الساطعة، التي تُشرق مانحةً، بأمرِ ربها، الموجودات ألوانها الزاهية والدفء والأمان.. كان يقول لها يا سيدتي.. من أنتِ ومن أين أتيتِ وكيف عصفت بوجداني كما يقول نزار..

كان ينتظر عندما يهبط الليل، وتهدأ الموجودات، وتنام العيون، ثُم يبدأ في مناجاتها.. كانت كالقمر السامق في سماء عالية، لا يقدر على الوصول إليه، وكلما حاول مد يده لكي يصل إلى ذلك القمر، والذي يظنه- مثل الأطفال- قريبًا، لا يستطيع.. لا يستطيع..

..*

أيها القدر..
أنت كمثل القمر..
فعلى غراره تكبُر..
من دون هوادة.. أو تتوارى..

من الـ"كارمينا بورانا"

..*

كان يقول لها إنها شيءٌ عزيزٌ راق من زمن مر ومضى.. شيءٌ عاش طيلة عمره يبحث عنه، وعندما وجده، كان هو يخوض غمار آخر معاركه، معاركه التي استطاع فيها تحقيقَ نجاحات أسطورية.. معارك قام فيها بواجبه تجاه من يحب من أهله وأبناء دينه ووطنه.. لكنها لم تكن انتصارات من دون ثمن..

كان الثمن إنسانيته.. ذاته التي ضاعت منه وهو يخوض حروبه هذه.. وعندما انتهى من الشق الصعب منها، وخرج مُنتصرًا بجراح المُقاتل الذي أدى ما عليه من واجب، وجد نفسه قد فقد ما كان يسعى دائمًا للبحث عنه.. فقد حقه الطبيعي في أنْ يجد إنسانةً تُحبه ويحبها.. يسير بجوارها وتسير بجواره.. لا يسبقها ولا تسبقه.. يكون درعًا لها ويحميها ويدعمها.. فقط في مقابل بسمةِ رضىً منها..

يقول لها إنه يبحث عن حياة جديدة يبدأها مع هذه الفتاة التي أحب ويؤدي معها الرسالة الأسمى التي ائتمن الله تعالى الإنسان عليها.. شريكة حياة.. يمضي بها وتمضي به.. في هذه الحياة حتى النهاية..!!

..*

وعندما وصل إلى نهاية كلماته هذه.. تأمل صاحبنا فيما كتبه.. شعر براحة بالغة أولاً إذ أفرغ مشاعره التي لا يقدر على التعبير عنها لها مباشرةً.. ثُم تأمل في كلماته هذه.. وتساءل مخاطبًا إياها.. هل يُقدرُ لكِ أنْ تراكِ صاحبة هذه الكلمات والإلهام؟!.. أم تظلين للأبد.. محاولةٌ من شخص حالم يبحث فيها عن حُلْمَه بعيدُ المنال؟!..

القاهرة في:

الجمعة: ٨ يناير ٢٠١٠م

رفّات سريعة على أوتار القانون

مثل افتتاحيات ألحان القصائد السنباطية.. حزينة وشجية!.. هكذا خطر بباله وهو يطالع وجهها القسيم في ذلك المقهى الراقي الواقع في وسط المدينة.. مدينته الجميلة القديمة التي يحبها..

لم يدرِ ما الذي دعاه إلى طول التحديق في وجهها الجميل الشفاف.. أهو الحزنُ الكامن في العينَيْن؟!.. أم هي النظرة البسيطة البريئة التي تلوح فيهما؟!.. أم لعله الإرهاق البادي عليها؟!.. حقًّا لا يدري..!..

لا يدري ولكنه كان يريد أن يدري.. في البدء حاول التشاغل عنها بمطالعة أوراقه وبعض المجلات التي كان يحملها؛ بينما يتناول فنجان قهوته الأثير في ذلك المكان الذي كان يحبه فعلاً؛ حيث كانت لقاءاته الأولى مع قصته القديمة التي ماتت.. إلا أنه بعد فترة وجيزة من المطالعة انتبه إلى أنه لم يتجاوز صفحة واحدة فيما كان يقرأ، بينما ذهنه– في الحقيقة– كان معها..

عاد ببصره إليها، ولفت نظره أنها كانت تكتب.. كانت تمسك بضعة أوراق تخط عليها بالقلم بعض الكلمات كل برهة من الزمن.. بدا وكأنها تؤلف قصةً ما.. أو ربما تكتب قصتها هي..!



لم يدرِ كم كان صادقًا في حدسه.. كانت في ذلك الحين تكتب قصتها.. قصتها الحزينة التي تبحث لها بعد عن نهاية؛ فلا تكاد تجد!.. كلا؛ لم تكن قصةً حب تقليدية من تلك القصص.. لم تكن هي من ذلك النوع.. كانت قصة تختلف.. قصة حياة ضاعت.. أو تكاد!..

لم يكن يعرف ذلك في تلك اللحظات.. فقط لاحظ أنها كانت تنفعل انفعالات متباينة ما بين كل فقرة تكتبها.. وخلال كتابتها للسطور القليلة التي تسطرها في كل مرة؛ كان يلمح لها انفعالات عدة.. ما بين فرحٍ وحزنٍ.. ترقُّبٍ ووجل.. ابتسامات ثم دموع مختلسة.. نعم بالفعل.. إنها تكتُب قصتها هيٍ!..

توترت جلسته، وهو لا يدري كيف يبدأ.. نعم.. لقد حزم أمره وقرر أن يبدأ.. شجعه على ذلك سمتها الحزين الهادئ.. بدت وكأنها بحاجة إلى مساعدة.. نعم.. كانت قد اندمجت فيما تكتب.. وكما بكت، وفرحت، وخافت؛ وصلت إلى نقطة تذكرت معها موقفًا كانت فيه في أشد الحاجة إلى البشر.. إلى صحبة آدمية تطمئن إليها..

ويا للأقدار.. الأقدار التي جمَّعت لحظتها الراهنة مع ذكرياتها الماضية.. اللحظة التي كانت تكتب فيها ذلك الموقف الذي مرت به منذ سنوات طوال، ولم يزل يطعن ببراثنه في أديم قلبها، ولحظة أن وقع بصرها عليه..



بالرغم من أنه حاول أن يدير عيناه عنها في ذات اللحظة التي كانت تتلفت فيها حائرةً حول نفسها بحثًا عن شيء ما.. ربما فكرة.. أو كلمة؛ إلا أن النظرات جمعت بينهما لوهلة.. وهلة بسيطة؛ إلا أنها اخترقت حجب قلبها وعقلها كالنار.. لا تدري لماذا؟!.. إنه ذلك السبب المبهم الكامن في ثنايا العقل.. قابع هناك في مكمن ما من عواطفها ومشاعرها.. ربما يعود ذلك إلى أنه يشبه وجهًا قديمًا.. وجه كانت تظنه مات وماتت قصته منذ زمن بعيد.. وها هو الآن يبعث من جديد.. من جديد أمامها، وفي هذه اللحظات بالذات..!

راحت تتطلع إلى وجهه الهادئ ذي العوينات البسيطة.. لم تكن نظراته لها من تلك النظرات التي تضايق أية أنثى تجلس وحدها في مكان عام.. كانت نظرات قلقة.. نظرات رجل مهتم.. رجل خائف.. خائف عليها (!!).. هذا هو التعبير الأقرب للدقة.. نظرات تشعر معها وكأنه متوتر لأجلها.. كأنه يشعر بها..!

توترت أكثر في جلستها.. كانت في لحظة ضعف إنساني قد لا تُحمد عقباها.. كانت بحاجة إلى أحد.. أي أحد يهتم.. وفي ذات الوقت كانت تنظر إلى الموقف بسخرية!.. مَن هو هذا أساسًا..؟!..

طالت الجلسة، وطال الموقف.. نظرات.. والنادل يمر أكثر من مرة لتجديد الطلبات.. النادل.. نعم.. هو الحل فعلاً.. وقف سريعًا، وطلب

حساب المنضدة التي يجلس عليها، وحساب المنضدة التي تجلس هي عليها.. لم يُشِر له عليها.. فقط ذكر له رقم المنضدة التي يجلس عليها.. ثم انطلق خارجًا لا يلوي على شيءٍ قبل أن تلتفت هي إلى الموقف..

وفي الخارج؛ راح نبضات قلبه تعلو؛ حتى ظن أنها قد أسمعت كل من في ذلك الميدان الشهير في قلب القاهرة..

وقف أمام بائع الصحف والقصص القديمة الذي يقف أمام المخرج الجانبي لذلك المقهى الراقي الذي كان فيه.. انحنى على "بسطة" الكتب الصغيرة التي اعتاد على أن يشتري منها كلما جاء إلى هذا المكان، منذ أن كان طفلاً.. البائع هو ذاته.. و"البسطة" هي ذاتها.. فقط ازدادت تشقق خشبها القديم، وازداد شيب شعر رأس البائع.. لم يعد هو ذلك الشاب القديم.. صار رجلاً عجوزًا!!..

لم يكن متعجلاً في الرحيل.. كان يأمل أن تأتي.. كان يتمنى أن تفعل.. وكان على يقين من أنها سوف تفعل.. كان يراهن على قراءته السريعة لشخصيتها في تلك الجلسة التي لن ينساها أبدًا، والتي كان لها في نفسه وقع النعناع القوي مع الماء البارد..

وبالفعل أتت.. شعر بصوتٍ ضعيف خَجِل ولمسات مترددة على كتفه الأيمن التفت إليها في هدوء؛ فسألته: مَن أنت؟!.. ارتعد لملمس أناملها

الباردة على كتفه في هذا اليوم الربيعي الذي بدأت درجات الحرارة فيه ترتفع منذرةً بقدوم الصيف..

لم يُجِر جوابًا.. فقط استدار إليها ببطء، ثم أمسك بكفها البلورية في يده، ومضى بها في هدوء عبر الشارع الطويل.. الغريب أنها لم تمانع.. انساقت إليه في هدوء واطمئنان غريبَيْن.. لم يلتفت إلى ذلك.. كان متلهفًا لكي يعرف قصتها.. ظلا يسيران.. وكلٌّ منهما يحاول أن يفهم من هو صاحبه!!..

القاهرة في:

الأحد ٦ أبريل ٢٠١٤م



ركن السور الأيسر!

منذ وهو صغير، حذَّرته أمه من ركن السور الأيسر.. لم يسألها لماذا، ولماذا هذا الموضع بالذات.. فقط ظل يتفاداه طيلة عمره.. سوف يأخذك ويسقط.. هكذا كانت أمه تحذره.. وهكذا ظل يتفاداه!..

ظل في خلفية وعيه مرتبطًا بنهاية العالم في ظل تحذيرات أمه المشددة.. مِن ركن السور الأيسر.. كان يلعب في جواره أحيانًا، ثم يتذكر تحذيرات أمه؛ فيجري ويختبئ..

دعَّم من مخاوفه المشهد الذي كان يطل عليه ركن السور الأيسر.. مشهد كئيب لا يبعث على الراحة من كتل الصبَّار وبقايا أطلال مهدَّمة كانت تكتسب سمتًا غير مريح للنفس في لحظات الأصيل عندما تبدأ الشمس في رحلة النهاية.. ظلال الأطلال والصبار التي تشي بالنهاية.. حياة قديمة كانت وماتت في هذا المكان.. بالتأكيد..

وبالتأكيد أيضًا هناك قصة حزينة ما وراء ذلك المشهد.. ربما طفلة انتهت حياتها بيد قاتلٍ ربما لا يزال حرًّا طليقًا.. كان هذا أحد القصص التي كان يسمعها وهو بعدُ صغيرًا من بعض يرويها الجيران القليلون الذين كانوا لا



يزالوا يقيمون حول المكان.. هذا المكان الذي صار الآن خُلْوًا من الحياة.. من كل أشكال الحياة..

فقط سيدة مُسنَّة ظلت تسكن هناك هي وابنتها.. كانت صموت كئيبة ككل شيء هناك.. خلف ركن السور الأيسر..

في الليل، كان كلبٌ كبير أسود كئيب الصوت، يظهر في المكان.. ورويدًا رويدًا؛ كانت تتكاثر الكلاب في المكان.. تظل طيلة الليل تنبح، حافرةً بمخالب أصواتها، في وجدانه، تحذير أمه الذي صار مقدسًا بفعل المرأة والكلاب..

يظلون ينبحون في جنون حتى مطلع الفجر.. فيهدأون قبل أن يرحلون، فيستطيع النوم أخيرًا.. لا تخرج من دون علمي في الليل وتذهب إلى خلف ركن السور الأيسر.. سوف تأكلك الكلاب.. هكذا كانت تقول له أمه..

في البداية، فكَّر أن يسأل الجدة عن سبب تحذير أمه، وعن سر ركن السور الأيسر.. لكن الجدة ماتت قبل أن يتذكر أن يسألها.. ثم نسى.. كبُر، وكبُر معه خوفه المبهم من ركن السور الأيسر.. بعد ذلك بعقود؛ فكَّر أن يسأل أمه، ولكنها ماتت بدورها..

مرت السنون، والسور بركنه الأيسر لم يزل قائماً.. لكنه ظل يتفاداه.. هَرِم، وهو يتفادى ويهاب الاقتراب من الركن الأيسر للسور "لئلا يأخذه ويسقط، وتأكله الكلاب" كما حذرته أمه ذات يوم..



ثم مات.. كان آخرهم.. فجاء عمَّال الهدم، لكي يهدموا المنزل القديم.. هدموه، وحولوه إلى كومة من الغبار والحديد الصدئ. إلا أن ركن السور الأيسر ظل صامدًا غير قابل للهدم.. دفنوه هناك كأجداده من دون أن يعلم؛ سر ركن السور الأيسر!..

القاهرة في:

الجمعة ٢٠ أكتوبر ٢٠١٦م



زهرة الصباح

عندما تأتين.. يأتي النهار..!

الكاتب

..*

جَلَسَ إلى مكتبه هذه المرة ليس ليكتب، ولكن لكي يتأمل ويتألم.. يتأمل في تجربَتِه الأخيرة، ويتألم للخسارة التي خسرها فيها.. إلا أنه في النهاية كان سعيدًا.. سعيدًا للغاية، لأنه أوصل إليها بضعة كلماتٍ متواضعةٍ عبر صديقتها المخلِصَة.. كلمات قال لها فيها إنه يحبها، والأهم، أنه قال فيها إنه يحترِمها.. يحترم هذه المخلوقة النبيلة.. النادرة الرائعة..

توتر في جلسته عندما وصلتْ أفكاره إلى هذه النقطة.. قام واقفًا واتجه إلى النافذة المفتوحة برغم برودة الجو في هذا التوقيت من يناير.. أخذ نفسًا عميقًا من الهواء البارد القادم من الخارج.. هواء نقي مغسول بفعل الأمطار التي هطلت على القاهرة هذا المساء.. شعر براحةٍ بالغةٍ وهو يغسل وجهه بالهواء البارد القادم من النافذة، وتأمل لحظاتٍ في وجه القمر الذي يطل على استحياءٍ من خلف سحاباتِ غيامٍ هائمةٍ في وجه سماء الليل..

يشبهها كثيرًا.. نعم، وجه القمر هذا يشبهها كثيرًا، خاصة عندما يتوارى خلف السحب الرقيقة التي تغطي وجه السماء، وكأنه يحاول أنْ يطبع قبلةً على جبين الكَوْنِ ووجه الطبيعة والناس، إلا أن حياءه وخجله يمنعانه من ذلك.. كما يشبهها أيضًا في أنه بعيد.. بعيد..

تنهد طويلاً عندما وصلت أفكاره إلى هذه النقطة، ثم تراجعَ عن النافذة عائدًا إلى أوراقه.. كان صوت عبد الحليم حافظ ينبعث من المذياع خافتًا خَجَلاً من سكون الليل.. لا يدري صاحبنا هذا هل هي الأقدار أم ماذا التي جعلتْ الإذاعة في تلك اللحظات تبث هذه القصيدة التي كان يتغنى بها عبد الحليم.. قصيدة قارئة الفنجان.. كان حليم يقول في تلك اللحظات "عيناها سبحان المعبود".. نعم.. بالفعل سبحان المعبود.. سبحان المعبود.. يا سيدتي، سبحان المعبود..

تذكر الكلمات التي عَرِفَ أنها وصلتها منه.. لقد قال لصديقتها المخلصة: "لا أزال أشعر تجاهها بعاطفةٍ عميقةٍ، وربما هذا يعود إلى أنني أحببتها لاعتباراتٍ تتعلق بعقلي وليس بقلبي أو مشاعري، وهي اعتبارات تظل آثارها في النفس طويلاً طويلاً.. لقد سألتيني ذات مرةٍ، لماذا أنا متعلق بها هكذا؛ برغم أني لم أتبادل معها أية كلماتٍ.. الآن أقول لكِ الأسباب، إنها إنسانة رائعةَ مجتهدة ومتْعَبَة، وأنا أحب المجتهدين المتعَبين، وخصوصًا أنها تملك من الأسباب التي يمكنها أنْ تعيش حياتها في دعةٍ وراحةٍ، ولكنها

آثرتْ خوض معركة الحياة بقوةٍ وشرفٍ، وهذه النوعية من الناس يجب أنْ تكون محل رعايتنا وتقديرنا جميعًا، بل تستحق أنْ نقبل التراب الذي يمشون عليه"..

ولكن ما لم يَقله لها أيضًا، هو أنه يتمزق حقيقةً عندما يلحظ تَعَبِهَا هذا.. يلحظه من ارتكانة رأسها على مسند مقعدها في المرات التي يتصادف فيها أنْ تتوافق فيه مواعيد ذهابهما وعودتهما من العمل.. لكم تمنى في تلك اللحظات أنْ يريح هذا الرأس المتْعَب على كَتِفِه هو، ويربت عليه، مقبلاً إياه، كما كان يفعل مع أمه الراحلة العظيمة.. إنها تشبهها كثيرًا أيضًا.. تشبهها في بسالتها وإرادتها.. هي بالفعل تشبه شقيقته الكبرى عندما كانت في سنها.. ذات الوجه الأبيض المستدير والعينَيْن السوداوَيْن وتصفيفة الشعر الأسود التي تشبه تصفيفة طالبات الثانوي قديمًا..

لا يدري لماذا تذكر في هذه اللحظات قصةً قديمةً ماتَتْ؟!.. هل هو قدره أنْ يعيش دائما قصصًا كتِبَ عليها أنْ تموت؟!..

كان يتمنى أيضًا لو أنْ يفعل لها شيئًا.. أي شيءٍ، فقد يرد لها بعض جَمِيلها عليه.. نعم هي فعلتْ فيه الكثير والكثير من دون أنْ تدري.. لقد علمته دروسًا جديدةً في الحياة.. لقد ظهرت ببسالتها النادرة في وقتٍ كان هو خارجًا فيه من معركةٍ كبرى استنزفتْ قواه تقريبًا؛ حتى أنه فكر في اعتزال هذه الدنيا، والاكتفاء بعمله، إلا أنه من مشاهدٍ قليلةٍ لها تعلم أنْ يستمر في

الكفاح.. مِنَ المهم أنْ نستمر في الكفاح.. تذكر ارتكانة رأسها الرقيق على مِسْند الكرسي الذي يقع قبالتها في السيارة..

لقد غَسَلَتْ أيضًا الكثير من همومه وأحزانه.. لقد جعلت له هدفًا في هذه الحياة وشيئًا ينتظره.. نعم هو ينتظر لقاءها ولو طالت الفترة لأسبوعَيْن لثلاثةٍ.. لأربعٍ.. أو أكثر.. لا يهم.. هي تستحق الانتظار.. هي تستحق التقدير..!!

لذلك كم كان يتمنى أنْ يمنحه القدر جائزته العظمى، ويرتبط بها!!.. وقتها كان سوف يمسك بيدَيْها البلوريتَيْن الرقيقتَيْن، ويبدأ في البكاء فوقهما.. وقتها كان سوف يبكي طويلاً.. طويلاً جدا، حتى يغسل همومه وأحزانه كلها.. كلها.. هو لا يجد في البكاء أي خجلٍ.. أين هو من أبي بكرٍ الصديق وعمر ابن الخطاب؟!.. أهو أقوى منهما؟!..ألم يبكيا من خشية الله؟!.. ألم يبكيا موت حبيبهما الطيب الرحيم محمدٍ؟!.. هو أيضًا جالس الآن يبكي كل القصص التي ذَبلَتْ وماتتْ بين يدَيْه طيلة السنوات الطويلة الماضية!..

..*

ذات يوم كتب في أوراقه أيضًا عنها: "يا سيدتي.. من أنتِ حقا؟!.. أنا لا أدري.. بالفعل لا أدري..!!، فأحيانًا أظن أنكِ وهم.. أو حلْم، فأنتِ أعظم وأسمى وأرق.. وأجمل.. من أنْ تكوني حقيقةً..!!.. أنتِ أجمل من أي حقيقةٍ.. يا سيدتي.. أنت لستِ حقيقةً عاديةً.."!!..



لحظاتٍ أخرى، ثم غاب في بعض ذكرياته الأخرى القليلة القريبة عنها.. كان جالسًا في تلك الساعة من الصباح الباكر ذات يوم منتظرًا داخل الحافلة الصغيرة التي تقله كل يومٍ إلى العمل.. كان صباحًا شتويا باردًا، وقد أعلنت السحب عن سيطرتها على جو السماء، التي غابت خلف ضبابٍ كثيف.. جلس يتأمل كعادته وذهنه ذاهب أشتات وراء صورتها.. صورتها التي تجلتْ له في تلك اللحظات حقيقةً من خلف زجاج النافذة الكبيرة في السيارة.. للحظاتٍ ظن أنه من إطالته للتفكير فيها، رأى هذه الصورة منطبعةً على زجاج النافذة، إلا أنه رأها تقترب، ومع اقترابها عرف أنها حقيقة لا مراء فيها..

ومع اقترابها أيضًا، أتى النهار!!.. بالفعل أتى النهار، ليس هذا تشبيهًا مجازيا، ولربما هي تصاريف القَدَر التي جعلتها تدنو من السيارة في ذات توقيت سطوع ضوء النهار.. لا يدري.. فقط كل ما يَدْرِيه هو أنه ما إنْ ظهرت في الواجهة الأمامية للمشهد، حتى زاد الضوء من حوله، وبدأت الموجودات المحيطة به في الوضوح، إلا أن أكثرها وضوحًا كان محياها الجميل الرقيق..

ولقد وَصَف هو هذه اللحظات في أوراقه كالتالي: "مع اقترابها، أتى النهار، ولم أعد أرَ في تلك اللحظات من العالم من حولي سوى وجهها.. وجهها الوضاء الأبيض، الذي يشبه تلك الزهرة البيضاء التي لا أعرف اسمها، ولكنها عبارة عن استدارةٍ كاملةٍ من الأوراق البيضاء بيضاوية

الشكل منحنية الأطراف، التي تخرج من دائرةٍ أصغرَ ذات لونٍ ذهبي.. هذه الزهرة تشبهها كثيرًا، حتى في عودها الرقيق الذي يربطها بالأغصان الخضراء الندية التي تحملها"..

..*

من نافذةٍ أرمق مَقْدِمَ الشمس..

إشراقة زهرةٍ بيضاءَ ولدت للتو بالأمس..

لكي تعطي أملاً لليوم.. للغَدِ..

للغَدِ يا سيدتي.. للغَدِ..

الكاتب

..*

هذا هو ما كتبه صاحبنا في أوراقه، وفيما بعد عرف أن هناك زهرتان لهما ذات الوصف؛ دائرة من الوريقات البيضاء المحيطة بدائرةٍ أصغر ذهبية اللون، الأولى هي زهرة السوسن، والثانية هي زهرة الياسمين.. لكنه لم يهتم كثيرًا باسم الزهرة، فقد كانت هي الزهرة الحقيقية.. زهرة الصباح..!

القاهرة في:

الخميس ٢١ يناير ٢٠١٠م

سيدة الأمطار!!

كانت الأمطار تغزو كل شيء حتى روحها ذاتها.. كانت تسير بين أشجار خضراء كثيفة محملة بأوراق الزهر الأحمر والأزرق الذي يشبه وجهها كثيرًا.. كانت وحيدة.. ومرهقة وحزينة؛ كطفلة ظلت تجري طويلاً وهي تبكي لأن أحدهم فكَّ لها جدائلها الجميلة.. للحظات وقفت تنصت لموسيقى الطبيعة من حولها بينما غيامة كبيرة تحوِّم حول المكان..

كان الضباب يغلف قمم الأشجار ويهبط أحيانًا حتى منتصفها.. برد الصباح وقطرات الندى المتكاثفة على كل شيءٍ.. الشاطئ قريب.. الموج هادر في الغالب.. يرتفع حتى يصل إلى منتصف المسافة التي تقف فيها الأشجار؛ قبل أن ينكسر على الصخور مطلقًا رذاذه الذي يصل أحيانًا إلى وجنتَيْها الباردتَيْن أو يتناثر على صدرها وعلى الغلالة البيضاء الرقيقة التي ترتديها؛ باعثةً نشوة محببة في نفسها..

كانت وحدها.. وحدها تمامًا؛ إلا من بعض الطيور التي تطلق تغريداتها المستمرة فوق الغصون.. حاولت عبثًا.. لم تعرف كيف جاءت إلى هنا، ولا لماذا؛ إلا أنها كانت تشعر بإحساس غريب، لم تدر معناه، لكنها شعرت بأنها ليست غريبة عن المكان.. أنها جزء منه؛ بالرغم من أَنها أول مرة تطؤه بقدمَيْها..

شعرت بحاجتها إلى شيءٍ ما.. إلى فعلِ شيءٍ ما؛ تتماهى به مع هذا كل هذا الجمال.. كانت تشعر أنها بحاجة إلى أنَ تبرز من نفسها الجزء المرتبط بهذا المكان بداخلها..

بدأت الأمطار في الهطول بعدما توقفت لبرهة.. راحت هي تدور حول نفسها ببطئ ومياه الأمطار تغمرها.. رويدًا رويدًا لم تعُد تشعر أن السيل الجارف المنهمر من السماء يضايقها؛ بل شعرت أنها ترغب في المزيد.. لا يتسرب إلى جسدها فحسب؛ بل إلى روحها ذاتها.. خُيِّلَ إليها أن الكارمينا بورانا تتردد من بعيد.. العاصفة تزمجر والجوقة تردد الألحان السماوية الرائعة..

سرعة دورانها تتزايد.. رفعت يدَيْها إلى السماء.. رقصة المطر الدوارة تستبد بها وبجسدها.. بروحها.. الأنفاس تتسارع.. وحيدة تمامًا.. شهوة الطبيعة والامتزاج بها تتصاعد مع الدماء الحارة بفعل الدوران، إلى رأسها.. قبلات المطر على الوجنتَيْن المحمرتَيْن، والشفتين الحارتَيْن، تتزايد..

ثم فجأة تهب رياح قوية لتطرح عنها الغلالة البيضاء التي ترتديها.. تطير بعيدًا؛ إلا أنها لا تعبأ بذلك.. الأمطار ورذاذ البحر الهائج ينهالان على الجسد العاري.. بدت الطبيعة وكأنها تشهق لفرط الانبهار بما رأته.. السيدة عارية ترقص.. الطيور تراقبها وبعض الأرانب البيضاء التي خرجت من جحورها لترى هذه المعجزة..



راحت تدور.. وتدور بينما ماء الأمطار ورذاذ البحر الهادر ينتهز الفرصة ليضاجع كل جزء من أجزاء الجسد والروح.. يهبط غاسلاً الشعر الأسود الجميل المنسدل على الكتفَيْن.. يمتزج بالنهدَيْن الفاتنَيْن ويتسرب من بينهما مشكلاً نهرًا صغيرًا يصل إلى أسفل قدمَيْها منتهكًا كل أسرارها وخصوصيات أنوثتها..

بدأت تشعر بالنشوة تغمرها وبالسلام والهدوء يغمران روحها رغم صخب الطبيعة.. تضم ذراعيها حول صدرها لكي يتجمع الماء في بركة صغيرة فوق نهدَيْها قبل أن تطلق سراح المياه لكي يغسل الأرض أسفل قدميها..!

ثم بدأت الطبيعة في الهدوء.. وبدأت هي بدورها تهدأ في حركاتها المحمومة، وما أن هدأت العاصفة تمامًا؛ حتى كانت هي تكمل المسير بين الأشجار بحثًا عن غلالتها البيضاء..

انحنت على بركة ماء قريبة، فطالعها وجه الحورية الفاتن الذي تعشق تأمله في مرآتها.. تأملته كثيرًا بينما تتحسس رقبتها وبعض من مكونات الوجه القسيم الجميل.. ثم استدارت إلى الغلالة البيضاء التي كانت ملقاة على حافة البركة لكي تستر بها نفسها وتخفي فتنتها عن الآخرين عندما تعود لكي تمتزج بهم؛ وإلا أصابهم الجنون!..

القاهرة في:

الأحد ١٣ يناير ٢٠١٣م



طفل صغير في أروقة المكان!

في كل مرة يزور فيها هذا المكان؛ يعود به الماضي إلى أول مرة زاره فيها. منذ ٣٢ عامًا بالضبط. يعود ذات الطفل، يسير في طرقاته منبهرًا بكل شيء من حوله، القباب والمباني الضخمة، والخيام الواسعة العملاقة، يمر في كل هذه الأروقة، يتقاذفه الناس، وبتقاذفهم. ينسى ذاته نفسها.. طفل منبهر. هذا كل ما في الأمر..

يشتري ذات القصص ذات الأوراق الملونة الجميلة صقيلة الأغلفة. ينظر إلى ألعاب الأطفال التي صار لا حصر لها. كان يحب المكعبات الخشبية وألعاب التجميع البلاستيكية إلى حد الجنون. لكن صوت أمه الراحلة يدوي في أذنيه معاتبًا إياه: لا تكن طفلاً؛ أنت كبرت على هذه الأشياء!. فيتظاهر باللامبالاة وهو يمر إلى جوار واجهات العرض، ويتصنع علامات الجد على وجهه. يدَّعي أحيانًا أنه يشتريها بعضها لأطفاله. هو لا يملك أطفالاً؛ لأنه هو ذاته لم يزل بعد طفلاً، فكيف يملك طفلٌ طفلاً؟!..

يتمنى أن يجري ويمرح مثل "أترابه" من الأطفال المحيطين به. لكنها تقول له – مجددًا – بصوت أثيري: لا تكن طفلاً!..

لا يجادل البائعين في السعر، حتى لو علم أنهم يسرقونه. لا يحب تدنيس اللحظة، ولا قدسية المكان بذكرياته البعيدة للغاية معه..

ذات يوم وقف أمام صورة الطفل وأخته المرسومة بخطوط ركيكة، ولكنها صارت لعقود طويلة، علامة تجارية لأشهر أنواع الكتب المدرسية. كان يتساءل في سذاجة بينه وبين نفسه: ألا يكبر الطفلان أبدًا؟!، ثم ينتبه إلى أنهما مجرد رسمة، فيتمنى بينه وبين نفسه، أنْ لو كان مجرد رسمة؛ فلا يَكْبُرُ أبدًا!

عندما كَبُرَ؛ صار جبلاً، صار موسى آخر، ولكن لأنه كان موسى؛ فقد كان دائمًا ما يبكي في دواخله وهو يتذكر أمه وهي تنتظره في الماضي عند عودته!..

القاهرة في:

السبت ٣ فبراير ٢٠١٨م



طيَّارة ورق

ثُمَّ تبقى لي..

على مرِّ السِّنين..

فهي لي ماضٍ.. من العمرِ وآتِ..

رامي

..*

كانت الورود الحمراء تملأ جنبات الشُّرفة، وقد تحوَّلت بفعل هواء الرَّبيع وحرارته الَّلطيفة إلى غلالةٍ حمراء تملأ النَّاظرين بهجةً وراحة نفس وسرورًا.. كانت الشَّمس لا تزال تملأ الجانب الغربي من السَّماء، وقد بدا أصيلاً بهيجًا.. كان ثمة صوت "راديو" يأتي من بعيد.. وتحديدًا من محل البقالة الواقع في أسفل المنزل المقابل لمنزلنا؛ حيث متجر العم "إبراهيم فانوس"..

ابنه نجيب يفتح محطة "أم كلثوم"، بينما تفضل ابنته السَّمينة الظَّريفة ماريان الاستماع لمحطة "نجوم إف. إم"، والفارق ليس فارقًا في المزاج فحسب، بل في الأجيال.. في الماضي كان العم فانوس يحب الاستماع لإذاعة

الشَّرق الأوسط، وبرامج ظريفة مثل "أبلة فضيلة"، بينما أتى نجيب بإذاعة "أم كلثوم".. ثم ماريان مع إذاعة "نجوم إف. إم"..

والرَّاديو الأسود العتيق، هو ذاته.. لا فارق، ولكن الفارق في اليد التي تسخدمه.. والمزاج الذي يُحرِّكه..

..*

كنت الآن أتابع مشهدًا لم أره منذ سنواتٍ طويلةٍ.. طويلةٍ.. طيَّارة ورق ملوَّنة تطير على ارتفاع عالٍ يدل على أنَّ من أطلقها "محترف لعب" بهذه اللُّعبة الجميلة.. كانتً الطَّيَّارة الورق تُحوِّم حول الأفق القريب، وتظهر وتختفي خلف أحد المنازل العالية المجاورة لمنزلنا..

كانت هواية إطلاق الطَّائرات الورقيَّة هوايةٌ قديمةٌ، ضاعت واندثرت في زحام الإنترنت والموبايل والـ"إم. بي- ٣" وغيرها من مفردات العصر الحديث، التي أضاعت الكثير والكثير من بهجة وبراءة الماضي..

سنواتٌ طويلةٌ مرَّت عليَّ لم أرَ فيها مثل هذا المشهد، وقد أصابني مرآها بالكثير من المشاعر المُتناقضة والمُتضاربة.. الكثير من المشاعر والشُّجون، وإنْ كان الحزن والحنين هي مشاعر الأساس التي أشعر بها الآن.. الحزن والحنين العميقَيْن..

لحظاتٌ وشردت نظراتي.. وراحت إلى بعيدٍ بعيدٍ.. إلى سنواتٍ طويلةٍ إلى الوراء!!..

..*

لم تعُد المنازل المقابل لنا قَفِرَةً كما هي الآن.. ولم تعد شقتُنا صامتةٌ مطفأة الأنوار كما هي الآن.. عادت ذاكرتي إلى الوراء سنين طويلة.. وباتت عينيَّ تبصران مشاهدٌ ماتت منذ زمنٍ طويلٍ.. طويلٍ.. أطول وأبعد من أنْ تحصيه الذَّاكرة..

في المنزل المقابل لنا يجلس العم صادق عبد المتعال في شرفة المنزل، وأمامه زوجته السَّيِّدة ناهد.. هو ضابطٌ متقاعدٌ في القوَّات المسلحة، وزوجته امرأة فاضلة من عائلةٍ كبيرةٍ من البحيرة.. شارعنا يحمل اسم عائلة العم صادق.. أرستقراطية الشَّعب والطَّبقة الوسطى كما ينبغي لها أنْ تكون.. كوبان من الشَّاي ومناقشاتٍ هادئةٍ بين الزَّوج والزَّوجة..

مناقشاتٌ هادئةٌ تختلف تمامًا عن الصَّخَبْ القادم من شقة أخيه بأسفل.. محروس.. محروس هذا كان يحب الموسيقى، وكان لديه "عود" جميل للغاية، وكثيرًا ما جلس في شرفة منزله العريضة التي زرعها بأغصان اللِّبلاب الأخضر المتسلِّق البهيج، الذي تتخلله بعض الغضون والأوراق الحمراء، يغني عليه.. كان يعشق "أم كلثوم"، وكان يغني أغنياتها لأصدقائه الذين تكاثروا من حوله.. يدندن على العود الخشبي، أغاني السُّنباطي والقصبجي..

أبناؤه كانوا قريبين منه في السِّن، بحكم الزَّواج المبكر في ذلك الزَّمن.. يجلسون حوله، ومعهم أصدقائهم.. عاطف وعصام وفوزي.. وغيرهم الكثيرون.. يهزُّون الرُّؤوس، ويستعيدون الَّلحن، وكأنَّما "أم كلثوم" هي التي تُغنِّي..

وفي الدَّور الأول يجلس العم محفوظ عبد المتعال مع ابنه عمر، وأمامهما يجلس العم فانوس ومعه ابنه نجيب، الذي صار يجلس الآن جِلسَة والده، ومعه ابنه مايكل وابنته ماريان، وفي الغد ربما يجلس مايكل ومعه ابنه الذي لا يزال في عِلْم الله تعالى.. لكن لا الجِلسَة هي الجِلْسَة، ولا ملامح الوجه هي ملامح الوجه.. البسمة غابت.. والهم حل محلِّ السَّعادة التي كانت جزءً أصيلاً من ملامح الوجه..

بعض باعة البطيخ والتِّين الشُّوكي، وعربة أو اثنتين من عربات "الجيلاتي" و"الفيشار"، جيلاتي العم لطيف لا نظيرَ له، وكان "أبو أشرف" بعربته البسيطة الجميلة، أحد المعالم التي تنبئ بقدوم الصَّيف في شارعنا.. سيدةٌ ترتدي الملابس الفلاحيَّة السَّوداء وتُغطِّي وجهها بطرحةٍ جميلةٍ مُطرَّزةٍ تبيع الذُّرة المشوية.. "حمام يا مشوي".. أصواتهم تختلط بأصوات زينب بائعة الخضروات.. رائحة الخُضار الطَّازج تمتزج مع رائحة الفاكهة الجميلة، والفيشار السَّاخن.. مزيجٌ جميلٌ من الأصوات والرَّوائح والمشاهد.. مزيجٌ من الحواس.. مزيجٌ من زمنٍ انتهى، ولن يعود أبدًا..



ذكرياتٌ داعبت فكري وظنِّي..

لست أدري أيها أقرب منِّي..

هي في سمعي على طول المدى..

نغمٌ ينساب في لحنٍ أغنِّ..

رامي

..*

"أم كلثوم" تصدح من "الراديو" الأسود القديم الذي كان وقتها جديدًا.. تقول "الحب كده.. وصال ودلال.. ورضا وخصام.. الحب كده".. محروس يقول: "الله يا ست!!".. أم نوال- زوجة العم فانوس- بأسفل تقول وهي تعيد الكراسي إلى أماكنها على ناصية الشَّارع بعد أنْ انتهى ولدها نجيب من رشِّه بالمياه، تلافيًا لحر الصَّيف: "اسكت، واسمع يا محروس"..

في الخلفيَّة تُدوِّي أصوات بنات الخالة.. الصِّغار منهن فحسب؛ حيث نلعب معهن، بينما تجلس منى مع هالة في ركنٍ بعيدٍ تحكيان معًا أحلام الغد.. الغد الذي قد يجييء وقد لا يجييء.. جيهان الصَّغيرة تتفق مع أحمد على الزَّواج بعد ١٠ سنوات عندما يتخرجان، بينما حسين مستمرٌ في هزيمة نشوى في ألعاب البِلي.. الخال يقف في الشَّارع ينادي على الجميع للخروج



في نزهةٍ على دراجته البخاريَّة، التي كانت تستوعب خمسةً من الصِّغار، ولا تسلني كيف..

الأم الجميلة المناضلة في زحام الحياة، تقف تودِّع الجميع، ومن خلفها يقف الأب بجلبابه الأبيض النَّظيف ووجهه الحليق.. مشهد بانورامي تراه للشَّارع من الشُّرفة.. بعض الأولاد ذاهبون الآن للعب الكرة في السَّاحة الفارغة خلف مدرسة "محمد فريد".. بينما آخرون يركبون دراجاتٍ مُزيَّنة بأوراقٍ ملونةٍ جميلةٍ.. الأم تُوصي الخال بالحذر، وتقول لأحمد الصَّغير أنْ يشتريَ لأخيه "جيلاتي"، وألا يُنفق كل "مصروفه" في شراء القصص الجميلة و"الألغاز" التي يحبُّها..

ومع مغيب الشَّمس تبدأ أسراب الحمام التي كان يُربِّيها "أمين" جارنا في العودة إلى "البِنِّي" الجميل الذي كان قد أقامه لها من بعض أكوام الخشب التي رصَّها بجوار بعضها البعض كيفما اتُّفِق، على سطوح الدَّور الخامس من منزلهم الكبير.. هي الأخرى هوايةٌ أخرى ضاعت واندثرت وسط صخب الحداثة وضجيجها.. حمامٌ جميلٌ مُتنوِّع الألوان.. بعضه كان يحطُّ على الزَّرع الذي كنت أرعاه في شرفة منزلنا.. وقتها لم نكُن نخاف أمراض الحداثة الجديدة، مثل "أنفلونزا الطيور"!!..

..*



طار الحمام من البِنِّي..

من بعد ما كان صُغار..

وريشه بقى متحنِّي..

وغصب عنَّا طار..

مين علِّمَك يا حمام.. مين..

معنى الهديل والكلام..؟!!..

عبد الرحيم منصور

..*

ولكن "كل شيء راح وانقضى".. كما يقول سيِّد حجاب.. الغروب هذه المرَّة كان كئيبًا.. صمت القبور يخيم على الشَّارع وعلى المكان الذي لم أعُد أعرفه.. الشَّمس حزينةٌ كسيفةُ البال.. وبدا وكأنَّها تتعجَّل الرَّحيل عن هذا المشهد الحزين.. لا طيَّارة ورق، ولا حمام ولا أي شيءٍ.. مات الحمام ومات العم صادق والعم محروس.. الجميع مات أو رحل.. لم يبقَ سواي.. وأحزاني..!!..

..*

داري يا داري.. يا دار..

راحوا فين حبايب الدار..

فين.. فين.. قولي يا دار..

لياليكي كانت نور..

يسبح في ضيِّ بحور..

صبحت فضا مهجور..

مرسوم في كل جدار..

حسين السيد

..*

وعندما جنَّ عليَّ اللَّيل، وأنا لا أزال جالسًا في وضعيَّتي تلك، بدأ القمر في تحسُّس خطواته من خلف المنزل القريب الذي أمسى فارغًا.. قمرًا لطيفًا أعاد بعض البسمة إلى وجهي الحزين.. قمرٌ أبيضٌ ذكرَّني بوجه الطِّفلة التي أحب.. وعندما تذكرتها، قال لي هاتفٌ في نفسي: "لا تحزن.. فلم يضع كل شيء".. وعندما بدأ نجيب في لملمة أشياءه من خارج "الدُّكَّان" الصغير، وبدأً في جذب "شيش" المحلِّ الخارجيَّ المعدنيَّ، تمهيدًا للرَّحيل.. تبسَّمُت بسمة رضا.. إنِّني الآن.. أحب!!..

القاهرة في:

الأحد ٧ يونيو ٢٠٠٩م



عازف الناي الأعمى!

في بلد ما، وفي زمن ما؛ كان هناك عازف ناي أعمى.. كان يسير في طرقات المدينة يعزف على نايه، ولا يقبل الهبات من الناس.. كان يشعر بالرضى كلما سمع نغماته.. وأنه يجعل الناس أكثر سعادة بما يعزفه لهم من دون مقابل..

الرضى.. هكذا كان حاله.. البساطة.. هكذا كانت حياته..

كان ذلك حتى قابلته ذات يوم أميرة صغيرة.. قالت له إنها معجبة بعزفه.. وطلبت منه أن يعلمها النفخ في الناي؛ لكي تخرج ذات النغمات الساحرة؛ فقَبِل..

علمها.. صارت مثله، فأفضل منه.. ثم حان وقت رحيله عن بلدتها.. طلبت رفقته في حياته؛ فوافق.. هو على كل حالٍ أعمى، ولا يخشى على نفسه فتنتها..

وعدته بأن ترافقه في ترحاله في كل البلاد، وأن تذهب معه إلى كل الآفاق التي يريد، وأن تأخذ بيده في الطرقات..

رافقته، واعتمد عليها.. صارت هي كل حواسه.. حتى عينَيْه اللتَيْن فقدهما ذات يوم وهو لم يزل بعد صغيرًا، حتى إنه استغنى عن عصاته التي كان يتوكَّأ عليها بسبب ظروف عجزه..



ثم ذات يوم استيقظ وراح يتحسس موضع نايه.. وجده مكسورًا، بينما اختفت هي تمامًا بعد أن دمرت نايه، وصار عاجزًا عن السير وحيدًا.. جلس حزينًا يفكر.. يفكر ويتعجب منها؛ لماذا فعلت ذلك؟!، وكيف سوف يسير وحده مرة أخرى في الطرقات من دونها؟!..

ظل هكذا عاجزًا في مكانه؛ حتى مات!!..

القاهرة في:

الأربعاء ١١ مارس ٢٠١٤م



عام جديد!!

سيدتي..

يا سيدتي.. من أنتِ حقا؟!..

أنا لا أدري.. بالفعل لا أدري..!!

فأحيانًا أظن أنكِ وهم.. أو حلْم..

فأنتِ أعظم وأسمى وأرق.. وأجمل.. من أنْ تكوني حقيقةً..!!..

أنتِ أجمل من أي حقيقةٍ..

يا سيدتي.. أنت لستِ حقيقة عادية..!!

الكاتب

..*

كانَ الضياء الباهر يملأ كوة النافذة الضخمة التي وقف يحدق فيها عن بعدٍ، بينما كانت أمواج البحر ترقص رقصتها المجنونة أمامه مانعةً إياه من اللحاق بهذا الضياء الذي يسطِع أمامه.. وقف حائرًا لا يدري ماذا يفعل؛ حيث لا يزال أمامه الكثير من الأشياء لكي يفعلها قبل أنْ ينتهي وقته..

تذكر عبارةً قديمة قرأها في مكانٍ ما وزمانٍ غابرٍ مضى.. عبارة تقول: "لا يزال أمامي أشياء عليَّ أنْ أفعلها، وأميالٌ عليَّ أنْ أقطَعها، والغابة أمامي باردة مظلمة.."... نعم.. إنها لإليوت.. قرأها له قديماً..

ولكن لم يكن هناك بد من السعي للوصل إلى نافذة الضياء الضخمة هذه.. البعيدة هذه.. الرائعة تلك.. الساحرة تلك.. الظلام من حوله يملأ المكان، ظلام مخيف أدهم؛ إلا أن ضياء النافذة كان يبدد بعضًا من هذا الديجور الذي يحيط به.. ولا تزال الأمواج ترقص رقصتها المجنونة، ورياح الشاطئ تكاد تقتلعه اقتلاعًا من مكانه.. إلا أنه محارب.. يعرف كيف تستقر قدميه في مكانه، فلا تقتلعه الأعاصير ولا الأمواج ولا السيْل الهتون..

تذكر في هذه اللحظات حلماً قديماً، كان فيه وجه حبيبته هو هذا الضياء ذاته، الذي كان ينبعث من النافذة المضيئة، وتذكر في هذه اللحظات– أيضًا– كيف أنقذه وجه حبيبته– آنذاك– من شياطين الظلام..

استمرت حَيرته، وهو واقف، بينما خيل إليه أنه يسمع من بعيدٍ.. من بعيدٍ.. موسيقى الـ"كارمينا بورانا"، وكأنها ضربات القدر ذاته.. وكأنها لحن الطبيعة الثائرة.. كارمينا بورانا.. الأشعار الدنيوية.. أغاني الحياة.. أَو أوْ فورتيونا.. أو يا أيها القدر باللاتينية.. لغة السحرة القديمة!!..





أحيانًا أظن أنك حرارة الشمس وما تمنحنا إياه من حياةٍ..

أو بهاء القمرِ ذاته، وقد نزل إلينا..

نحن الأرضيين الفانين؛ لكي يجعلنا نصبر على حياتنا الفانية بدورها..

وأحيانًا أظن أنكِ ضياء الفجرِ..

وأنت تعلمين يا سيدتي أنها............

شفافة جدا لحظات الفجر..

نتذكر معها من نحب..

من عاش منهم..

ومن مات..!!..

الكاتب

..*

جاءت ووقفت بجواره.. لا يدري متى جاءت ولا متى وقفت بجواره، ولكنه شعر بها.. كيان نوراني غريب على مفردات عالمنا ومقاييسه البسيطة.. نَظَرَ إليها، ونَظَرَتْ إليه.. لم تتكلم ولم يتكلم، فقط نظر إلى عَيْنَيْها.. عَيْناها البريئتان الحساستان.. أمسك بيدَيْها.. تمامًا كالحلْمِ.. ومثل الحلْمِ أيضًا بدأ الكَوْن يتبدل من حوله..



وَقَفَتْ هي شاردة وضياء النافذة ينعكس على جبينها الوضاء بدوره.. ثم أمسكت بيده وراحت تقوده عبر الموجات الهادرات من حوله نحو النافذة، التي بدت وكأن فيها خلاصه من كل مشكلاته.. من ظلمات حياته التي تحيط به..

ورويدًا رويدًا، راحا يقتربان من النافذة.. صوت موسيقى ملائكية يتصاعد من حولهما.. الضياء يقترب.. يقترب.. يدنو، وهي لا تزال تقوده.. حتى وصلا إلى هناك.. حتى حدود النافذة.. حتى حدود الشاطئ المقابل للبحر.. حتى حدود الكَوْن ذاته ربما.. هو لا يدري.. حقا لا يدري.. فقط هو يدري أنها معه.. وهذا يكفيه..

نَظَرَ لها من دون كلام مجددًا.. ورآها لأول مرةٍ بوضوحٍ.. كانت ترتدي ثوبًا طويلاً لا لون له، أوَ هو له كل ألوان الكَوْن الجميلة.. فتارةً هو أبيض، وتارةً هو أخضر، وتارةً ثالثةً هو أزرق بلون السماء أو بلون البحر الهادئ.. أو بلون زهرةٍ زرقاء نادرةٍ..!!..

..*

عالم جديد كان من وراء النافذة.. قادته هي إليه.. أناس يلبسون النور والأخضر يتحركون في مدينةٍ واسعةٍ شوارعها نظيفة وقد ملأتها الورود والأغاني والهواء الطيب الهادئ.. الكل في حركةٍ دائبةٍ من وإلى مبانٍ أنيقةٍ

تناثرت على أرضٍ من تبرٍ أبيض جميل تظللها الأشجار المنتظِمَة على جانبي الطريق، وكأنها قطعُ شطرنج على رقعةٍ أنيقةٍ.. بينما الشمس من بعيدٍ تضيء الأرض وتحيي الإنسان.. طيور بيضاء وخضر جميلة للغاية تسبح هناك حول سحاباتٍ صغيرةٍ هائمة عند الأفق.. وخيل إليه أنه يسمع تراتيلَ بعيدةً.. تراتيلَ تتغنى بالإيمان بنعمةِ ربنا سبحانه وتعالى..

خطى إلى داخل النافذة متلهفًا على دخول هذه الجنةِ الأرضيةِ، وقد شعر ببرودة هوائها الهادئ المنعشة.. ثم انتبه فجأة إلى أنْ كفه فارغة، ولم تعد تحتوي كف حبيبته.. حبيبته التي راحت تبتعد عنه.. كالعادة.. لماذا لا تأتين معي؟!.. سألها.. لم ترد.. كرر لماذا؟!.. لم ترد، وراحت تبتعد.. تبتعد.. بينما هو يخطو أولى خطواته إلى أرض هذه المدينة الساحرة..

تساءل في نفسه.. لقد قادته إلى الجنة وتركته؟!.. فهل يدخل؟!.. كلا.. كلا.. سوف يعود إلى الشاطئ المظْلم لكي يبحث عنها.. لكي يستفزها كي تظهَرَ من أجل أنْ تنقذَه.. كما في كل مرة.. تنقذه.. من الشياطين.. من نفسه.. من مخاطر الحياة.. تَساءَلَ في نفسه وهو يغادر المدينة عائدًا إلى الشاطئ المظلم ومن ورائها الغابة المخيفة.. ترَى.. كيف كانت حياته سوف تكون بدونها؟!..



هوامش:

....

هامش أول:

يا سيدتي..

هل قلت لكِ من قبلِ.. أنني أحبك؟!..

إذا لم أكن قد قلتها.. فإني أقولها لكِ..

في عام جديدٍ..

أحبكِ يا سيدتي.. أحبكِ..

عندما أراكِ أحلم بسنابل القمح الخضراء..

أحلم بالزهور..

أحلم بغدٍ.. لا تذهبين فيه عني..!!

..*

هامش ثانٍ:

يا سيدتي.. كل عام وأنتِ بخير.. كل عام وأنتِ ملهمتي.. كل عام وأنتِ منقذتي.. كل عام وأنتِ هناك.. عند الشواطئ المظلمة تقودينني إلى حيث النور.. دائماً إلى حيث النور..

القاهرة في:

الأربعاء ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٩م



عبيط القرية

على رصيف الذكريات.. جلسنا..!!

..*

يُحكَى أنه كان هناك "عبيط" يعيشُ في قريةٍ.. وكان في هذه القرية طاحونة جميلةٌ مبنية من القِرميد الأبيض.. وككل شيءٍ قديم، طَغَتْ الحداثة على هذه الطاحونة، فأصبح فيها "موتور" كهربائي يُديرُها بَدلاً من مراوحها القديمة الجميلة التي صَمتَتْ.. رُبما إلى الأبد..

كان لا يزال هذا "العبيط" يحتفظ في ذاكرته بذكرياتٍ بعيدةٍ بعيدةٍ.. عن أم حنون كانت تُدفِئ جسدَه في الليالي الباردة بأحضانها الدافئة.. كانت تُمشط له شعره، وكانت تقرأ القرآن الكريم له كلما مَرِضَ.. ولكن عندما مَرِضَتْ هي لم يستطع أنْ يفعل لها شيئًا..

المهم أنه كانت أجمل لحظاته هذه عندما يكون في أحضانِ أمه تقرأ له القرآن أو قصةً جميلة من القصص التي كان يحبها أمام منزلهم، بينما يراقب هو بعض الغُيوم المُسافرة في سماء أكتوبر شبه الباردة.. وفي الخلفية كان يُدوي من بعيدٍ.. من بعيدٍ.. صوت ماكينة الطحين وهي تدور برياح الخريف

الذاهب.. الآن لم يعد هناك أم ولا صوت الطاحونة ولا أي شيءٍ.. حتى الخريف.. اختفى!!..

❋.❋.❋

هذا العبيط ألهم أحد الأدباء بكتابة قصةٍ.. كان عنوان القصة أيضًا "عبيط القرية".. كانت هذه القرية تقع بالقرب من البحر.. كان فيها قوم بسطاء، وكان هؤلاء القوم يعملون في البحر بحكم الجِيْرَة.. الجِيْرَة التي لم يكُن البحر أحيانًا يجعل لها "خاطر" أو مكانةً في تعامُله مع هؤلاء البُسطاء.. مثل القَدَرِ تمامًا.. أحيانًا قد يكون قاسيًا.. ولكنه تعلم أن تلك القسوة قد تكون قمة الرحمة، ولكن من دون أنْ يعلم أحد، ولكن ذلك يكون لحكمةٍ عُليا قد لا يفهمها أحدُنا..

❋.❋.❋

على رَصِيفِ الذكريات..

أطلُب الكثير من الأُمنيات..

على رَصِيفِ الذكريات..

ماتت أجمل الفتيات..

شاعر مغمور

❋.❋.❋

المهم أنه رغم "عَبَطِه" هذا.. أحب هذا "العبيط" فتاةً جميلةً من القرية.. والمدهش أن هذه الفتاة "بدا" وكأنها تحبه.. نقول "بدا"؛ لأننا لنْ نَعْرِفَ أبدًا ما إذا كانت تحبه أم لا.. لأنها ماتَتْ.. ذات يوم ابتلعها البحر.. وقتها "زَعَلَ" كثيرًا عليها.. أُمه ظنت أنه لمجرد أنه "عبيط" فسوف ينسى سريعًا.. إلا أنه لم يكن "عبيطًا" إلى هذا الحد.. فظل يذكُر حبيبته كثيرًا كثيرًا.. إلى الآن.. حتى شاب شعر رأسه..!!

..*

على رَصيف الذكريات..

قتلتني أجمل الزهرات..

..*

بعد أنْ ماتت حبيبته، ماتت أُمه.. ثم ماتت جارته التي كانت بمثابة أمه.. ثم مات البقال الذي بجوارهم.. ثُم رَحَلَ شيخ الجامع المُعمم الذي كان يُحبه.. كان اسمه الشيْخ عبد القادر.. رَحَلَ، ولا يدري "العبيط" إذا ما كان قد مات بدوره أم انتقل إلى مسجدٍ آخر..

لم يبقَ أحد.. حتى الصيادين رحلوا.. منهم من مات، ومنهم من "أكله" البحر، ولم يعُد، ومنهم من اشترى سفنًا حديثةً تعمل بالمحركات، بدلاً من تلك الخشبية الجميلة الملونة ذات المجاديف، والتي كان يهوى اللعب فيها

كثيرًا وهو بعدُ صغيرًا.. كانت أُمه تخشى عليه إذا ما "خَرَجَ" إلى البحر على متنِ إحداها.. لكنه كان يعود دائمًا.. دائمًا يعود، مهما كان البحرُ ثائرًا، لدرجة أن الصيادين- عندما كان هناك صيادون- يتفاءلون به، ويأخذونه معه حتى يعودوا سالمين!!..

..*

على رَصِيفِ الذكريات..

كُنا نراقب سِحْرَ الغيمات..

..*

لم يَزَلْ بعدُ يذكُر- رغم "عَبَطِه" الظاهر- منزلهم البسيط المبني من البُوص الذي لم يكُن يُخفي قليلاً أو كثيرًا.. فلم يكُن لديهم أي شيءٍ.. لذلك هو يذكُر كل شيءٍ.. يذكُر النافذة التي كان يراقب البحر منها.. يذكُر نسمات يوليو العليلة المش.. يذكُر رياح سبتمبر وأكتوبر، وغَيامات ديسمبر ويناير، وبرودة فبراير ونواته.. كان يشعر بالسلام السرمدي يغمُر رَوْحَه وسط كل هذه الطبيعة.. كل هذا الهدوء.. كل هذا السلام..

لا يزال يذكُر أيضًا رائحة الجوافة والفراولة التي تشتريها والدته من السوق، وبلح النخلة القريبة من دارهم، وسحر جهاز الراديو الدائر.. كان

هناك شخص يغني يقول: "أنا مهما خدتني المُدُن.. وخدتني ناس المُدُن.. دايماً صورتك في قلبي دليلي للمُدُن".. كان لا يفهم ما يقول، لكن النغمات وصوته كانا شديدَيْ العذوبة، لدرجة أنه كان يربُط بين صوته وكلماته وبين أمه دون أنْ يدري..

كان يجلس ليُراقب سحاباتٍ مسافرةٍ إلى.. إلى أين؟!.. هو لا يعرف إلى أين تذهب السحب.. لكنه فقط كان يذكُر حُضْنَ أمه الدافئ في هذه اللحظات..

لا يزال يتذكر كروانًا صغيرًا كان يُعشش بجوار "الخُص" البوص الذي كان يعيش فيه هو.. كان الكروان يُصدِرُ أصواتًا جميلةً كان يحاول "العبيط" أنْ يُحاكيها بفمه هو.. أُمه كانت تضحك.. تضحك كثيرًا؛ حتى تبدو أسنانها البيضاء النضيدة، وقالت له إن الكروان يدعو الله تعالى بصفيره هذا.. يقول إن المُلْكَ لله وحده.. وعلمته كيف يدعو الله هو أيضًا..

في أحيانٍ أخرى، كان يجلس في "الحوش" الخلفي للعُشة التي كان يعيش فيها مع أُمه.. حفيفُ الرياح مع أوراق الأشجار المتناثرة في الفناء.. بالإضافة إلى بعض الأوراق البيضاء التي تناثرتها الرياح.. أوراق فارغة وأخرى من صحفٍ قديمةٍ، كانت أُمه تلف فيها بعض البضاعة القليلة التي كانت "تنزل" بها إلى السوق.. يلعب الكُرَة و"الأُولى" مع حبيبته الصغيرة.. هذه لا

يزال يذكرها.. في الواقع هو لا يزال يذكر كل شيءٍ.. لذلك هو الآن يجلس داخل الطاحُونة يحاول أنْ يديرها بيديه؛ فقط عله يستعيد بعض ذكريات الماضي!!..

..*.*.*

ها هو قدري..

العيش مع الذكريات..!!

القاهرة في:

الإثنين ٢ نوفمبر ٢٠٠٩م

―――――――――――――――――――――――――――――

عنوان القصة مأخوذ عن رواية للأستاذ الكبير، محمود سالم رحمه الله، كان فيها ذات التيمة، ولكن في سياق آخر مختلف، ضمن سلسلة "اللغز" التي كان يكتبها للمغامرين الخمسة، وأصدرتها له "دار المعارف" منذ نهايات الستينيات، وحتى التسعينيات الماضية.



"عرائس المسرح"

كانت عرائس المسرح تشعر بالحزن في كل يوم عندما ينتهي العرض.. كان الجمهور يصفق طويلاً للفنانين، ويُعجَب كثيرًا بديكورات الخشبة والخلفية، بينما هي بضعة ألواح من الخشب الملون والقماش الرخيص، فيما العرائس هي التي تقوم بكل شيء في العرض..

ذات يوم اتفقت عرائس المسرح على الانتقام من الممثلين الذين يقومون بتحريك العرائس وإجهادها في كل عرض، ويحصلون على المجد بينما لا تحصل العرائس على أي مجد..

قال لهم كبيرهم: "سوف نقوم بحرق المسرح كله؛ فلا يجد الجمهور مكانًا يأتون إليه، ولا مقاعد يجلسون عليهم، ولا يجد الممثلون أية ديكورات يختبئون خلفها لكي يجهدون فينا طيلة المساء، ويحظون في النهاية بالمجد والمال.. سوف ننتظر الليل لتنفيذ خطتنا، وفي نهاية الليل سوف نكون قد نلنا حريتنا الأبدية!"..

تحمست العرائس إلا واحدة. كانت تشعر بمرارة خفية في الكلمات التي كان يرددها كبيرهم.. هي فهمت كل شيء، لكنها لم تكن تملك أن تتكلم، أو لنقل إنها لم تشأ الاعتراض لرغبة ما في داخلها!..

في نهاية ذات يوم بعد العرض؛ قامت العرائس متحمسة في الظلام، بعد انصراف الجميع، وإطفاء الأنوار، بإشعال النيران بواسطة قدَّاحة اختلسها كبيرهم من جيب أحد الممثلين ومُحرِّكي العرائس خلال العرض..

أشعلوا النيران في كل شيء، وقد نسوا في غمرة حماسهم وغضبهم أنهم مجرد عرائس من قماش وخشب، ولا أقدام لها؛ فلم تستطع في تلك الليلة الفرار من النيران التي أتت على كل شيء.. كل شيء، حتى عرائس المسرح، التي فهمت في النهاية وهي تحترق، أنها إنما في قرارة نفسها، كانت تعلم أنها في سبيلها إلى الانتحار، فرارًا من عبودية الخيوط والممثلين؛ فتركت نفسها للنيران!..

القاهرة في:

الأحد ٢٨ أكتوبر ٢٠١٨م



عقاب!!

وبَّخته كثيرًا.. غضبت منه.. هددته بأن تضربه.. "ماما سوف تضربك وتخاصمك".. هكذا قالت له، عندما قال لها إنه لم يزل يحبها وإنه لم يزل يحلم بها.. قالت له إنها تركتك.. كانت مجرد طفلة مفتونة بحبك لها، ولكنها لم تكن تحبك..

هكذا تكلمت معه بصراحتها المعهودة.. كان شديد السرور بها.. كان يشعر أنه قد صار له "أخ" أكبر رشيد.. يحبه ويخشى عليه وينصحه لوجه الله تعالى بعيدًا عن أية أفكار سيئة أو تصورات دنسة للعلاقة بين رجل وامرأة.. هذا بفرض أنه كان رجلاً وكانت هي امرأة.. في الحقيقة كانا طفلَيْن ساذجَيْن يتعاملان بحسن نية مع العالم من حولهما!..

كان قد شكا لها أمرًا يؤرِّقه هذه الأيام.. كان الشوق الذي يكاد يصل إلى حد الجنون يعصف به.. ذكرى حبيبته القديمة التي رحلت عن عالمه، لم تزل بعد تؤرقه.. قال لها إنه لم يزل يحبها.. ويحلم بها.. يطمح فقط إلى سماع نغمات صوتها في هاتفه؛ حتى ولو كان ذلك لمرَّةٍ أخيرة..

ثارت عليه بشدة.. وقالت له إنه يبتذل نفسه.. طلبت منه النسيان.. أن يبدأ من جديد.. أن يعيد حساباته.. أن يكون صامدًا أكثر من ذلك.. ذكَّرته

في كلماتها القوية بالراحلة العظيمة.. أمه.. أم موسى الباسلة؛ التي أرضعته من صدرها ووصاياها قبل أن تلقيه في نهر الحياة الكبير الصاخب..

من قال إنه لا يمكن أن تقوم صداقة نزيهة بين رجل وامرأة؟!.. أظنه كذلك فكر.. قال لنفسه: المهم في هذا الأمر؛ أن تخلص النوايا.. أن نعود إلى فطرتنا السليمة في تصوراتها للحياة والكون..

تحول بذهنه- برغمه- إلى المشكلة الأصلية.. كيف يتصرف؟!.. طلبت منه أن يحذفها من حياته.. يرفع صورها من على الجدران.. كادت تُجنَّ منه عندما علمت أنه لم يزل بعد يحتفظ بهذه الصور أمامه.. اتهمته بالبلاهة والرومانسية الزائدة!..

تفكَّر في كلماتها كثيرًا، ثم تركها وقد أزمع أمرًا ما عندما يعود لبيته..!

....

عندما عاد إلى المنزل، كانت الكهرباء مقطوعة.. وقف في الظلام يتأمل الجدران من حوله في ضوء الغروب الخفيف الآتي من خلف زجاج الشرفة.. تأمل في الصور الموضوعة في إطارات (براويز) جميلة أنيقة.. وتملأ المكان..

بيدٍ مرتجفة، أمسك بأول إطار فيهم.. ذلك الذي يضم صورها وهم بعد طفلة.. أخرج الصور من الإطار، ومد يده إلى الصورة الأولى.. عاد النور في هذه اللحظة.. لمع.. ملأ أرجاء المكان.. أغشى عينيه.. انتبه.. انتبه إلى أنه

يمسك الصورة بيدٍ والمقص بيدٍ أخرى.. يبدو أن النور قد أعلن له الحقيقة.. حقيقة الجريمة التي ينتوي ارتكابها..

ألقى ما بيده من صور.. أمسك المقص بيده اليسرى، ورفع اليمنى المجرمة أمام عينَيْه.. ثم وضع كفه بين شطرَيْ المقص.. وبعزيمة لا تلين؛ ضغط.. ثم نظر يتأمل في الدماء التي بدأت تسيل من كفِّه.. كان يعاقبها على ما كانت سوف تقوم به من جريمة لا تُغتفر!..

..*

هامش:

برغم كل شيء؛ فهو سعيد.. سعيد كطفل عثر على أمه بعد طول غياب.. بعد طول تيه في زحام سوق الدنيا..!

القاهرة في:

الإثنين ٧ أبريل ٢٠١٤م





عن الماضي الذي لا يزال يجيء!

كتب ذات يوم في مذكراته عبارات غريبة مبهمة، كشفت عن بعض معاناته..

كتب إنه كلما تقدَّم العمر بالناس؛ كلما كانوا أكثر نسيانًا، وتضيع منهم التفاصيل القديمة، وربما كان ذلك هو رحمةٌ من الخالق العظيم بهم.. إلا أنا. كلما تقدم بيَ العمر؛ كلما استدعت الذاكرة أحداثًا أقدم.. بعضها يعود إلى لحظات الميلاد ذاتها.. أستعيدها بوضوح.. بوضوح جدًّا..

قد تأتيني رؤىً في أوقات اليقظة، في الهدوء الشامل المحيط بي في الليل.. أو في صورة أحلامٌ في المنام.. أحلامٌ ملونة واضحة للغاية. لا يمكن أن أتصور أنها أحلامٌ أصلاً..

أرى المدرسة القديمة الأولى، وأرى وجوهًا، وأتذكر أسماء.. الذاكرة صارت تستدعي كل شيء.. كل شيء، حتى صور مجلات الأطفال القديمة التي ضاعت مني منذ ما يقرب من أربعين عامًا.. وجه حبيبة الطفولة الصغيرة البرئ.. كلماتي لها.. مدوناتي عنها بالقلم الرصاص.. وجه أمي ورائحة غطاء رأسها وأحضانها.. أحلامٌ وطموحات الماضي التي ضاعت طي السنين.. كل شيء.. كل شيء!..



أحيانًا تأتي هذه الرؤى والأحلام في صورة شريط سريع جدًّا.. يجري بي إلى حد الأفق.. إلى حد نهاية الكون.. أجتاز حياتي السابقة في اليوم والليلة آلاف المرات.. ذلك متعب.. يجعلني ألهث.. ضربات قلبي تتزايد مع سرعة قطار الذكريات هذا الذي أركبه، ويجري بي بجنون..

صور.. أصوات.. وجوه.. أماكن.. تبدأ بطيئة، قبل أن تتزايد سرعة تواردها في "كريشندو" متصاعد يبدو لي في لحظة من اللحظات أنه سرمديٌّ بلا نهاية.. قبل أن يهدأ فجأة، ثم يختفي تاركًا إياي متلاحق الأنفاس، وللموت أقرب.. إرهاق.. أعراض انسحاب رهيبة تجتاحني، قبل أن تهدأ العاصفة ويختفي كل شيء!..

هذا مؤلم.. إنساني للغاية. لذلك هو مؤلم.. مؤلم جدًّا.. لذلك أفكر في الذهاب إلى طبيب يجري لي جراحة يستأصل بها مركز هذه الذاكرة اللعينة.. ربما يقتلني ذلك.. ربما يصيبني بالجنون.. ولكن كل شيء أهون وأفضل من هذا السباق المهلِك المجنون إلى الماضي.. الماضي الذي كان جميلاً؛ فصار في المستقبل قاتلاً!..

القاهرة في:

الأحد ١٧ نوفمبر ٢٠١٧م



الحلاق

كانت الساعة تدنو من الثامنة مساءً، وقد غربت الشمس في سماء القاهرة.. كان الملل يجتاحه ويجتاح كل شيء حوله.. شقيقه استيقظ من نومه ليبدأ فترة عمل جديدة – حتى يوم الجمعة – وبعد ذلك سيتحدث مع خطيبته هاتفيا.. وهو ما صار روتين حياته اليومي.. صار وحيدًا غالبية الوقت.. في أوقات سابقة من حياته كان لا يجد وقتًا لكي يقوم بتمشيط شعره.. الآن هو لا يجد أحدًا ليكلمه في الأصل..

انتابه الضيق.. فقام وارتدى ملابس خروج خفيفة.. لم يكن يدري إلى أين يذهب.. ملابسه وما أخذه معه من نقود لا يكفيان إلا للذهاب إلى الجوار..

طفق يسير، وهو لا يدري إلى أين.. فقط جدران الذكريات تتحرك مع بحركته في الشوارع والحواري الضيقة المحيطة بمنزلهم القديم الواقع في حي شبرا.. ظل يسير حتى قادته قدماه إلى محل الحلاق..

لا يدري لماذا اختار محل الحلاقة القديم الذي كان يرتاده وهو بعد لا يزال طفلاً.. شيء ما دعاه إلى الذهاب إلى هذا المحل ومحاولة رؤية وجه الحلاق الشائب العجوز.. لا، ليس عجوزًا بالضبط، ولكنه وجه ترك

مرحلة الرجولة وانزلق إلى الشيخوخة.. وجهه القديم يحمل ذكريات قديمةً بدورها.. لا يدري ما الذي ألحَّ عليه للذهاب إلى هناك.. لكنه كان يرغب في شيء يكسر به ملل حياته.. يستعيد به ذكريات عمر مضى.. كان يرغب في أنْ يرى في مرآة الحلاق صورة ماض لا يزال عزيزًا عليه.. جدًّا!..

..*

بخطىً متثاقلة اتجه إلى ذلك الدكان العتيق الكائن في أحد الشوارع الجانبية المجاورة للشارع الذي يوجد فيه بيته.. ومتهيبًا دخل وتبادل التحيات مع الحلاق.. سنوات عديدة مرت على آخر لقاء.. من يوم أنْ منع نفسه عن كل شيء يذكره بوالدته وجدته الراحلتيْن..

"أهلاً" ترحيبية، قوية ومخلصة بالفعل، انطلقت من بين شفتيْ "نبيل" الحلاق.. قبلات عديدة تبادلاها.. تحيات حارة صادقة.. من الندرة القليلة التي يشعر معها بالود الحقيقي والاحترام المتبادل.. الأخ الأكبر الغائب عن حياته يتمثل في أشخاص محدودين.. "نبيل" مِن بينهم.. "نبيل" الذي لا يزال يحتفظ بجسده القوي القديم وإنْ مال إلى النحول بفعل الزمن والفاقة!..

دعاه إلى الجلوس أولاً، قبل الحلاقة.. نفس "الكنبة" الجلدية القديمة التي حال لونها بفعل الزمن.. جلس يتأمل فيما حوله.. المرايا؛ ذات المرايا، والجدران هي ذات الجدران.. إلا أن شيئًا ما فيها كان قد تغيَّر.. ربما هي روح المكان الذابلة.. ربما هي الشقوق والمُلاط المتساقط من السقف والجدران،



وما فقدته المرايا من طلائها الفضي؛ فصارت مظلمة في كثير من مواضعها.. ربما.. لا يدري.. فقط أحسَّ أن المكان قد صار حزينًا.. فقد ألق الماضي..

كان "نبيل" قد وقف يعد بعض الشاي على "المشعل" الغازي الصغير في ركن المحل، بينما صاحبنا لا يزال يدير رأسه وعينيه فيما حوله، عندما غاب عن الزمان ومعطيات المكان..

..*

"والنبي يا عم "محمد" خلِّي بالك من الواد "أحمد" لحد ما أرجع من السوق".. تقولها والدته.. عم "محمد" والد "نبيل" يقف يداعب أذن الطفل الصغير بالمقص الذي كان عملاقًا بالنسبة له في ذلك الوقت؛ حيث كان لا يزال يسير بصعوبة.. ويتكلم كلمات قليلةً بحكم سنوات عمره الخمس..

تذهب الأم والجدة إلى السوق.. العم محمد يأخذ الطفل ويضعه على "الطبلية" الخشبية التي يوازنها على مسندَيْ مقعد الحلاقة لكي يتمكن "أحمد" من الوصول إلى الارتفاع المناسب أمام المرآة..

وتعود الأم والجدة من السوق وتتسلمان الطفل وقد بدا عليه الضيق من الشَّعْر الذي التصق بظهره ومؤخرة عنقه، فتأخذه الأم وتشتري له واحدة من أكواب الجيلاتي الكرتونية التي يبيعها "أبو أشرف" أو "عم لطيف" كما كانوا ينادونه.. يأخذها ويجري فَرِحًا لكي يغيظ أخته الأكبر منه، بها..



يعرج الجميع على "حوش" منزل الجدة لكي تقتسم وابنتها ما اشتريتاه من السوق من خضر وفاكهة.. الوالد يقف في الشرفة بجلبابه الأبيض النظيف وسمْته الوسيم ينادي الأم ويدعو الجدة لشرب الشاي..

..*

الشوارع المرشوشة.. و"أم كلثوم" تهدر من المذياع القديم.. "نبيل" الشاب وأصدقاؤه وصوت الطاولة العالي، بينما الشارع يعج بالشباب والأطفال الذاهبين إلى لعب الكرة.. والمرايا الجديدة للمحل تعكس ظلال الشمس القوية في تلك الساعة من النهار.. والدته أصرت على أنْ يذهب للحلاقة في هذا الوقت.. فذهب، ولكنه لم يجلس على الفور، بل جلس إلى جوار العم "فرج" لكي يسمع منه بعض الحكايات.. ثم.....

..*

عاد إلى الزمان والمكان منتبهًا برجفة اجتاحته عندما ناداه "نبيل" لكي يلتقط منه كوب الشاي.. رشفات سريعة مع بعض كلمات تبادلاها للاطمئنان على الحال.. كلا.. لم يكن كلاهما على ما يرام هذه الأيام بالفعل..

ثم جلس أمام المرآة.. كان المحل فارغًا تقريبًا.. لم يكن هناك أحد من "شلة" زمان.. "سيد" السوَّاق.. "أبو عبد الله" مدرس اللغة العربية.. "محروس" الترزي.. عم "فرج" صاحب مطعم الفول والطعمية المجاور..

كلهم رحلوا سواءً من المكان أو الزمان.. حتى المرآة، عكستْ له وجهًا عرفه بصعوبة.. وبصعوبة أيضًا ميَّز فيه وجه الطفل القديم الذي كانه.. كان الظلام قد ملأ المكان تمامًا والشارع من الخارج وقد انطفأت أغلب لمْباته..

نظر إلى مكان المذياع في ركن قريب من باب المحل.. هو ذاته الراديو الأسود القديم الذي يعود إلى نحو أكثر من ثلاثين عامًا مضت.. كان على محطة "الشرق الأوسط".. قال له بصوت خافت كأنه قادم من قبر مغلق وقد أثارت الذكريات شجونه "ما تجيب محطة الست أم كلثوم يا نبيل".. كان وقت الحفلة المسائية لها..

..*

وتذكَّر.. تذكَّر بعض ما تعلمه من هؤلاء الرفاق.. الرجل قد يكون من محترفي الحشيش أو من المنحرفين أخلاقيًّا.. لكن معيار الأخلاق لديهم واحد.. لا تؤذِ أخاك أو صديقك.. فقط.. ساعتها تكون رجلاً خيِّرًا.. لا يقر هو ذلك طبعًا؛ حيث تربى تربيةً أخلاقية ترى أن الأخلاق والقيم كلٌّ لا يتجزأ، ولكنه تعلم من هذا الكلام أمرًا مهمًّا، وهو أن الإخلاص أهم ما في هذا الكون من أخلاقيات..

..*

سنوات تمر.. ويحل مقعد الكرسي محل "الطبلية" الخشبية.. يكبر وتكبر معه أحلامه.. ويصير جزءًا من مجموعة معروفة تجيء عند "نبيل" الحلاق

الذي كبر بدوره.. عاد من العراق دون مدخرات تقريبًا ليجد والده – العم "محمد" رحمه الله – وقد مات.. وقف في المحل بعده.. كانت صنعته هي الحلاقة هو الآخر.. صارا صديقيْن.. وكان يخبره بأسراره ويستشيره..

وهو الآن هنا لكي يخبره أيضًا بمشكلته الجديدة.. لكن لم تعد الدنيا مضيئة كما كانت.. شمس العصر راحت.. وضوء الغروب قد اختفى.. حتى صوت "أم كلثوم" وهي تغني "أنت الحب" يبدو أنه قد زحف عليه شتاء الزمن.. لم يعد هناك "محروس" ولا "سيد" ولا عم "فرج"، ولا أي أحد.. فقط هو و"نبيل".. أخبره بمشكلة والده الجديدة..

كان لـ"نبيل" رأيًا سلبيًّا في الوالد منذ سنوات بعيدة.. انتقد بشدة غيابه عنهم في أحرج سنوات حياة الأسرة.. لم يناقشه كثيرًا؛ فهو مقتنع بهذا الرأي، لكنه لا يمكن أنْ ينسى أنه والده..

تذكَّر والدته الراحلة.. لقد كفت عن زيارته في نومه منذ وصول ذلك الخطاب الذي علم منه أن والده لا يزال على قيد الحياة.. تذكَّر وتنهد..

كان هناك ضيف جديد على الجلسة.. ترزي أفرنجي يُدعى "ميشيل".. يبدو وكأنه صورة بعيدة من رفاق الماضي.. هو ابن عم "محروس" الجميل الطيب الذي كان يحمل عبق وهيبة الماضي.. خلف والده بعد رحيله في محلِّه المقابل لمحلِّ الحلاقة، ولكنه لم يكن على ذات الوزن من "الكاريزما" التي كانت تميز ناس زمان..

في الماضي؛ الجميع كانوا مختلفين.. كل منهم كانت له شخصية وسمْت مختلفَيْن تمامًا عن صاحبه.. أما الآن.. الناس جميعًا؛ كأنهم قالب واحد.. مسوخ.. ممسوخين.. لا لون ولا طعم ولا رائحة.. تمامًا مثل الفارق بين خضر وفاكهة الماضي، وخضر وفاكهة الحاضر.. حتى الحرفيين؛ كانوا أقرب إلى "الأفنديات"، أما الآن؛ فإن "الأفنديات" صاروا أدنى حتى من رعاع الماضي!..

..*

كانت رأسه الآن أشبه بطاحونة هواء.. هو يستحق ذلك؛ لأنه أصر على المجيء إلى هذا المكان.. لذا لكم يكد نبيل ينتهي من الحلاقة حتى سارع بالفرار، وهو لا يلوي على شيء.. لذلك لم ير دموع صاحبه التي أخفاها الظلام!!..

القاهرة في:

السبت ١٩ يوليو ٢٠٠٨م



في ذكرى خراب المدينة!!

بعض الشيب الظاهر في شعر الرأس.. هذا كل ما تغير في ثلاث سنوات.. الوقت في الليل الموغِل وهو ينظر إلى البرد والظلام خارج النافذة وقد نامت الموجودات.. موسيقى خفيفة تنبعث من جهاز التسجيل الكبير.. عمر خيرت مع ألحان عبد الوهاب.. الوقت مناسب فعلاً.. لكن اليوم ليس كأي يوم.. إنه ذكرى بلطيم في السابع من يناير.. يشرد للحظات وينسحب المشهد منه إلى هذا الماضي القريب.. لم يعد يرى النافذة ولا الليل ولا البرد.. فقط كان هناك.. في بلطيم!!...

..*

آسفة.. لقد تركنا لك خلفنا مدينتك خَرِبَة.. كانت هذه آخر كلمات سمعها منها عندما رفعت حاجياتها.. كان الهاتف هو وسيلة إخباره أنه الخراب الثاني لحضارته.. كان البرد ينخر عظامه وهو يقف في أقصى طرف وصلت إليه اليابسة في عمق البحر.. البحر الذي تمنى أن يبتلعه في هذه اللحظات.. موجات وظُلَل وظلمات بعضها فوق بعض.. الماء يصل إلى خصره وربما إلى صدره؛ بينما وقف هو صامدًا صامتًا.. ساعات قضاها

أمام هذا المشهد.. المشهد الذي عكس حالته النفسية المروعة، وهو يعلم أن الأغراب يجوسون خلال الديار، ويخرِّبون مدينته الآن..

ظل البحر ثائرًا، بينما السماء تهطل صيبًا فوق رأسه.. كان ماء المطر يكاد يخترق عظامه، والبرد ينخر أعصابه نفسها.. بدأ يعود عندما قدر أن الوقت قد انتهى، وأنه يجب أن يعود.. طين وبرد وظلام.. جوع يكاد يعصف به.. لن يكون قادرًا على شرب الماء، حتى يعود لكي يرى ما يعلم أنه سوف يراه.. أخذ طريقه للعودة!!..

..*

ساعات طويلة مرت به حتى وصل إلى داره في وقت متأخر من الليل.. كانت حطامًا.. التراب يغمر المكان، والركام ملقىً على الأرض في كل مكان.. بضعة هياكل خشبية هي كل ما تبقى من حضارة كاملة.. لكنها لم تفنى بعد!!.. فلقد بقيت الكتب، وبقيت الأقلام والأوراق وبعض الصور وإطار قديم فيه مصحفه الأول الذي قرأ فيه في طفولته.

جلس يبكي هذا الخراب، بينما البرد.. البرد والجوع.. الجوع الذي يعلم أنه سوف يكون رفيقه طيلة السنوات التالية حتى يعيد بناء ما تم هدمه؛ ينخران عظامه ويهتكان أعصابه..

المصابيح خافتة، والبني الكئيب بدرجاته يغمر المكان.. لا يدري لماذا حصل ولا لماذا قامت الشيطانة بكل هذا.. لكن.. هذا حصل.. ويجب أن ينهض..

أنهى بكاءه، وراح يكفكف دمعه، ويستعيد صلابته.. صلابة ورثها عن أمه الراحلة.. لم يدرِ لماذا شعر براحة غامرة عندما تنسم ذكراها في هذه اللحظات.. ذكراها ووصاياها.. كان آخر ما فعله في جلسته العاجزة هذه أن أقسم أمام أطلاله أن ما حدث لن يتكرر.. لن يتكرر إطلاقًا، ولو كان في ذلك حياته..

قام فبحث.. وجد صورة لأمه وهي بعد شابة صغيرة، تقرأ في مصحف صغير.. وضعها في إطار للصور وجعلها في واجهة المكان.. وبين الركام والورق الممزق والتراب الذي يملأ الأرجاء؛ بحث.. بحث حتى وجد مسبحتها القديمة، فقام ووضعها في إطار مصباح حائطي صغير كان يومًا جزءًا من واجهة المكان الأنيق، وقال في نفسه: ها قد بدأ الإحياء!..

..*

انتبه على لسعة بردٍ طافت به وهو في وقفته هذه أمام النافذة، بينما الصمت يغلف المكان من حوله بعد أن انتهت اسطوانة "خيرت" وصمتت.. التفت إلى ما خلف كتفه وهو يطالع الأضواء الملونة وأركان حضارته الجديدة التي تقف صُلبة شامخة.. قال في نفسه: هذه المرة؛ لن يهدمك أحد!..



ثم ألفى نفسه وقد تأخر به الوقت.. ذهب إلى بعض أدراجه وأخرج صورًا وذكريات قديمة لم تزل بعد معه بعد سنوات طيلة.. ليلتها بكى كما لم يبكِ من قبل..

القاهرة في:

الإثنين ٤ يناير ٢٠١٦م





في نهاية امرأة خاطئة أحبها ذات يومٍ!

لم يصدق أنها أمامه عندما فتح باب المنزل.. وجدها تنتظره.. لم يدرِ لماذا ولا كيف.. سنوات طويلة مضت، على غيابها وخيانتها له.. تركته وحيدًا ومضت، برغم كل وعودها بالبقاء.. شعر أنه كطفل تاه من دون أمه في شارع مزدحم.. ظل يبكي.. لسنوات..

منذ رحيلها حتى وجدها أمامه، ظل يبكي.. لكن، كل هذا لم يعد مهمًّا الآن.. فقط كل ما كان يدركه في تلك اللحظة أنه لم يزل بعد يحبها، وأن هناك الكثير من الأشواق التي يجب أن تجد متنفسًا لها في روحها وجسدها.. الحقيقة الوحيدة الآن أمامه، هي أنه هو وهي.. فقط.. ولم يدرِ أن معهم ضيفًا ثالثًا غير مرغوب فيه.. ضيف جحيمي..!..

ساعات طويلة ظلت بين يديه، وعلى شفتيها أفرغ الكثير من أحزانه.. وجهها القمري يطل من بين غابة شعرها الأجم الكثيف.. كان يحب هذا الانطباع لوجهها عندما يحيطه بخصلات شعرها الأسود، بكفَّيْه، قبل أن يقترب منها بوجهه، ويقطف شفتيها وزهرتَيْ وجنتيها.. أراح رأسه على نهدَيْها طويلاً.. لساعات ظنَّ أنها قرون..

جلست منهكة مبلبلة الفكر.. طلبت منه إعداد فنجان من القهوة التي تحبها.. ذهب وأعده.. وعاد إليها.. أعطاها القهوة، وانتظر حتى رشفت منها رشفة طبعت أثر شفتَيْها على الفنجان، قبل أن يأخذه منها في حرص؛ فهو سيكون آخر آثارها عنده.. ثم رفع السكين، وهوى!..

تخضب رداؤها الوردي الشفاف الذي اشترته خصيصًا لهذه اللحظات.. ثم جلس بجوار جسدها الجميل الهامد الذي كان ينبض بالحياة قبل قليل.. قبل قليل فقط.. بكى.. لساعات ظل يبكي، ثم قام حائرًا لا يدري ماذا يفعل لكي يداري سوأتها وفعلته.. لحظات وقام السكين بآخر واجباته في هذه الحياة.. نام بجوارها ميتًا ودماؤه تمتزج بدمائها!"..

القاهرة في:

الخميس ٨ مايو ٢٠١٥م



كانت أيَّام

الزمان: أحد أيام شهر ديسمبر من العام ١٩٨٣م..

المكان: القاهرة.. وتحديدًا مدرسة ابتدائية ما في حي شبرا العامر بمساجده وكنائسه ومكتباته وباعة الخبز والفول والطعمية والبرتقال الأصفر..

الوقت: الحصة الثانية.. حصة دين.. وبصراحة مش عارف أحدد دين إسلامي واللا مسيحي.. لكن المادة اللي كنا بندرسها وقتها كانت دين إسلامي طبعًا والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة..

"مِيس" نادية يوميها كانت غايبة.. الدنيا كانت مطرة بشكل فظيع، وأفتكر إنها من المرات النادرة جدًّا اللي مطرت فيها بَرَد على مصر.. نصف الطلبة كانوا غايبين ونصف المدرسين كمان، ويمكن أكتر.. "مِيس" نادية كانت تشبه ماما عشان كده أنا كنت بحبها قوي.. المهم حصة الدين المسيحي كانت في الفصل اللي جنبنا في الدور التاني من المدرسة.. بالمناسبة المدرسة دي اسمها الإنجيلية الخاصة بشبرا.. مدرسة راهبات إنجيليين..

وقتها كان لسة فيه حاجة اسمها مخزن الطرماي في شارع شبرا.. قبل مترو الأنفاق ما يجيي ويجيي معاه كنتاكي وفلفلة والكلام ده كله.. المدرسة دي

كانت ورا مخزن الطرماي.. الطرماي كان بينام هناك قبل ما يصحى ويركبه الكمساري والسواق ويمشوا بيه في شوارع شبرا الجميلة التي بللها المطر.. تووت.. توووت.. تووت.. توووووووووووووت طويلة المرة دي لأن محمد صاحبي كان واقف على القضبان والسواق خاف عليه..

المهم في اليوم ده أبلة نادية ماجتش.. وطبعًا التلاميذ المسلمين كانوا كتير في المدرسة المسيحية "الوحشة" دي.. وعشان كده كنا عاملين "زيطة" جامدة قوي في الحوش والفصول شبه الخاوية.. جت "مِيس" إيفون وجمعتنا زي "المعيز" من حوش المدرسة.. كنا بنلعب كورة في المطرة دي.. ماكونتش لسة لبست النضارة الكعب الكوباية ولا رجليا بدأت توجعني من قعدة المكتب والمذاكرة..

قالت لنا على الفصل ياللا.. قلنا لها مفيش "مِيس" نادية النهاردة.. قالت لأ.. اطلعوا الفصل حتلاقوا أبلة نوال حتديكوا الحصة.. طبعًا بصينا لبعض شوية الأول وبعدين طلعنا الفصل.. يوميها كان المدرس بيصدر أوامر والتلاميذ بينفذوها.. المهم طبعًا اندهشنا.. عارفين ليه؟!.. عشان أبلة نوال دي كانت مسيحية.. طلعنا الفصل، وأبلة نوال مسكت الكتاب.. كان مقرر علينا ساعتها دروس الوضوء والصلاة.. هي طبعًا ما عرفتش تشرح لنا أركان الوضوء ولا تتوضى وتصلي معانا.. مش عشان هي مسيحية..

لأ.. لسبب تاني حتعرفوه حالاً.. بس تابعوا معايا.. المهم، هي عملت إيه بقى؟!.. فتحت الجزء بتاع الحفظ، وحفظتنا سورة الفاتحة..

بسم الله الرحمن الرحيييم.. بسم الله الرحمن الرحيييم.. الحمد لله رب العالمين.. الحمد لله رب العالمين.. الرحمن الرحيييم.. الرحمن الرحيييم.. مالك يوم الدييين.. مالك يوم الدييين.. إياك نعبد وإياك نستعين.. إياك نعبد وإياك نستعين.. اهدنا الصراط المستقيييم.. اهدنا الصراط المستقيييم.. صراط الذين أنعمت عليهم.. صراط الذين أنعمت عليهم.. غير المغضوب عليهم.. غير المغضوب عليهم.. ولا الضاليييييين.. ولا الضاليييييين.. آميييين.. آميييين.. صدق الله العظيييم.. صدق الله العظيييم...

حفظنا سورة الفاتحة يوميها.. كان يوم سبت.. المهم الحصة لسة ما خلصتش.. أبلة نوال قعدت تكلمنا كلام قال الله وقال الرسول عليه الصلاة والسلام- هي اللي بتقول كده مش إحنا التلاميذ- وإحنا مستغربين.. المهم فهمنا منها بعد كده لما سمعناها بتكلم "مِيس" سناء محمد وبتقولها: طيب أعمل إيه؟!.. مش حينفع أعلمهم الوضوء والصلاة والمطرة بتمطر تلج كده والمصلى بتاع المدرسة- الإنجيلية- غرقان مية، فحفظتهم سورة الفاتحة وقلت لهم كلمتين من حلقة الشيخ شعراوي بتاعت أمبارح..!!

بالمناسبة مصلى المدرسة اللي عمله وبيَّضُه وفرشه تاجر سجاد مسيحي اسمه عم سعيد.. عم سعيد كان مسمِّي ابنه الصغير أيمن على فكرة..

وابنه سامح كان صاحبي.. معايا في الفصل.. وبالمناسبة برضو المدرسة مكانش فيها مكان يصلي فيه التلاميذ المسيحيين.. والناظر الأستاذ شكري المحترم مكانش بيسمح لهم إنهم يروحوا يصلوا في الكنيسة اللي المدرسة تابعة لها..

صحيح.. سنتها أخذت جائزة تحفيظ القرآن الكريم على مستوى المنطقة باسم "المدرسة الإنجيلية الخاصة"، وكانت ماما وأبلة نوال وأبلة نادية- الله يرحم الجميع- هما اللي حفظوني.. ساعتها مدرسين اللغة العربية في مدارس كبيرة زي الإمام محمد عبده وعمر مكرم استغربوا قوي.. وجم شافوني.. طبعًا لأن إزاي مدرسة مسيحية تاخد الجايزة الأولى في تحفيظ القرآن الكريم على مستوى منطقة الساحل التعليمية..

المهم اتربينا على كده.. عندنا فوزي النقاش.. فوزي فهيم حنا.. لما كان بيجيي يعمل لنا شغل سباكة أو كهربا، لما كنا نفتح له أغاني "المنجدين" بتاعت ياسين التهامي دي كان يخلينا لفتنا هنا واللا هنا؛ ويروح حاطط شرايط عبد الباسط ومحمد رفعت.. وعم مهاود.. أبو فتحي اللي ساكن تحتنا، يقعد يسمع معاه.. وترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا.. الآية دي بجد كانت بتتحقق قدامي.. الله يرحمه عم مهاود كان يقعد يبكي وهو بيسمع عبد الباسط وهو بيقرأ سورة آل عمران.. إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين..

عم مهاود كان مسلم ومخبي غالبًا؛ لأنه كان يقعد يقول لماما الله يرحمها: أنا عارف إن مفيش حاجة اسمها ابن الله.. هو ينفع أصلاً يبقى فيه إله وله ابن؟!.. هذا الرجل الصعيدي بعقليته القروية البسيطة استطاع الوصول لحقيقة عجز عنها كل علماء الفيزياء والكمبيوتر في الغرب.. عارفين ليه؟!.. لأنه مصري.. ومن شبرا.. بيسمع كلام الله؛ فبيؤمن بيه.. وقدامه مسلمين كويسين؛ فآمن بكتابهم..

بالمناسبة كام سورة في القرآن الكريم باسم الإسلام أو باسم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام؟!.. سورة واحدة.. اتنين أو تلاتة لو حسبنا سورتي يس وطه، لكن عندنا سورة آل عمران وسورة مريم، ومعندناش سورة السيدة خديجة رضي الله عنها ولا سورة السيدة عائشة رضي الله عنها.. طبعًا القرآن الكريم كلام الله تعالى القديم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وربنا اتكلم فيه عن المسيحيين بعد تحريفهم للإنجيل.. يعني كان قادر يلعنهم في كل كتابه العزيز.. فلم يفعل وهو القادر على كل شيء..

أكلمكم على إيه واللا إيه في شبرا.. حاجات كتيرة قوي تانية.. مثلاً جارنا، عم إبراهيم فانوس، كان حاطط صورة الشيخ طنطاوي جنب صورة البابا شنودة.. أيام إيه.. الإرهاب في التسعينيات.. بعد أمي الله يرحمها ما ماتت؛ جارتنا "تيتة" عواطف.. كانت هي اللي بتعمل لي فطاري في الصيام؛ تاني يوم رمضان، لأنها عارفة إني ببقى عند حد من إخواتي أول يوم، وفي

يوم وقفة عرفات.. لحمة بلدي أو فراخ حمرا وملوخية أو بسلة مع جزر ورز بشعرية أو معمَّر.. عمرها ما عملت حاجة أقل من كده..

صحيح.. أنا كنت في شبرا من يومين بدفع بعض الأقساط اللي عليا عشان الجواز زي ما انتو عارفين.. عارفين يوميها اتغديت إيه وفين؟!..... اتغديت فراخ حمرا ورز معمر وملوخية.. عند "تيتة" عواطف!!

القاهرة في:

الإثنين ١٧ أكتوبر ٢٠١١م





كانت هي! (أو رباب)

"اللعنة!.. لكأنها هي.. بل إنها هي.. ولكن؟!.. تُرى أكانت حقًّا هي؟!"..

جالت هذه الخاطرة في نفسه في سرعة البرق.. كان قد مر في هذا الشارع الذي فارقه قبل ٢١ عامًا بالضبط..

لا يدري أية حماقة قادته إلى ذلك الشارع الهادئ الواقع بالقرب من كورنيش النيل في تلك المنطقة من الحي القديم الذي كان يسكنه.. لكنها يبدو أنها كانت ذكرى بعيدة لمزته وهو جالس ذات ليلة.. وفي اليوم التالي قام بزيارة المكان؛ لعله يراها.. يرى رباب.. حبه الأول..

رائحة المدرسة القديمة.. وذكريات عمر فات.. يرى في خياله، وهو يجوِّل في الآفاق نفسه وهو يسير في شوارع غير الشوارع، وزمن غير الزمن، مع ناس غير الناس.. هو ذاته لم يكن على ما أصبح عليه الآن.. كهل على أعتاب الشيخوخة..

كان يرى مراهقًا صغيرًا يخطو أولى خطواته في الدنيا، وهو لا يعلم ما الذي ينتظره فيها.. يدرس لعله في يوم من الأيام، يصبح شيئًا ذا قيمة.. وهو الآن، وهو في الأربعين من عمره لا يدري هل أصبح كذلك فعلاً أم لا!!..





تذكَّر أمه النَّديَّة.. الشوارع المُبلَّلة بماء المطر في أشهر الدراسة.. هذه .. شمس مايو الجميلة.. خطوات أخيه الصغير وهو يلهث بجوار سريره في الصباح الباكر، في أول أيام الإجازة، لكي يخبره أن هناك "لغزًا" جديدًا صدر عند عم حلمي بائع الجرائد العتيق القادم من ماضي بعيد جميل.. أوراق بيضاء فيها رسوم ملونة أو بالأبيض والأسود، شكلت نظرته للحياة بأكلمها فيما بعد..

جو يوليو الموحي بالأمل بسمائه الصافية وشعاع الصيف الوليد في نهاره الذي يقول إن هناك مستقبلاً وإن هناك أملاً.. وشمس أغسطس الجميلة الساطعة الرائعة، الممتزجة بصوت نجاة وحليم، ثم أم كلثوم في الليل، المنبعث من مذياع هذا المقهى أو ذاك.. أصيل شبرا وروض الفرج الجميل.. صخب المقاهي والطريق.. ابتسامات الناس وقتما كانوا يبتسمون.. مئات..

زهر البرتقال في الشتاء.. النعناع في الربيع..فاكهة الصيف وجوافة الخريف بأوراقها الخضراء المصفرَّة قليلاً.. آلاف.. بل ملايين المؤثرات الحِسِّيَّة التي وقرت في ذاكرته، بالرغم من أنها ولَّت للأبد.. وربما لهذا هي أليمة..!

تصور كل ذلك وهو يخطو بخطواته المرتجفة إلى ذلك الشارع، في هذا اليوم الحار من أيام أغسطس.. شعر بقشعريرة تغزو بدنه وروحه معًا..

صمت كئيب يغلف المكان مع لمسة حزن.. اختفت كل هذه المؤثرات.. ما عاد هناك شيء.. لا أمه ولا المقهى ولا حليم ولا المذياع، ولا حتى بائع



الذرة المشوي العجوز الذي كان يقف هناك.. بالتأكيد مات.. هو مثل أي شيء قديم جميل يموت.. فقط صوت دقات معدنية تأتي من بعيد، من ورشة حدادة مجاورة على الأرجح..

خطا خطوة كان لها بدورها وقع الصمت في هذا السكون الشامل.. ثم كسر هذا الصمت فجأة صوت طفلة صغيرة جميلة تخرج من ذلك البيت الذي جاء له خصيصًا كل هذه المسافة.. كان أمامه مساحة خضراء لم تزل تحمل رونق الماضي.. لا عجب فصاحبه مهندس أساسًا وأجاد تخطيط منزله والساحة أمامه..

جرت الطفلة إليه ضاحكة عندما رأته.. عرف على الفور أنها ابنتها.. ذات العينين السوداوين اللتَيْن تأخذانك إلى عالم بعيد غير موجود.. الشعر الأسود الناعم المنسدل كليل حالك طويل بلا نهاية حتى خسرها.. ثم.........

خرجت هي من خلفها باحثة عنها!..

كانت لحظة مروعة بالنسبة له.. أهي؟!.. حقًّا؟!.. بعد كل هذه السنوات؟!.. نعم بالتأكيد هي.. هي.. بذات جمالها الأرستقراطي القديم.. وقفت تتأمله، وهو يضم الطفلة إلى صدره في شوق ولهفة وكأنها ابنته هو.. لم تكن تعلم أنه في هذه اللحظة يضمها هي.. هي ذاتها.. في شوق طال عشرات الأعوام، وربما قرون..

هل هي هذه حقًّا رباب هي تلك الواقفة أمامه؟!.. رباب التي أتعبته وأتعبها طيلة سني الدراسة الثانوية؟!..

نعم.. إنها هي..!.. أخيرًا بعد هذه السنين.. ما هي المصادفة القدرية التي جعلته يأتي إلى هذا المكان.. في هذا اليوم.. في هذه اللحظة؟!.. أكيد تدابير إلهية علوية لا يد له فيها..

مدت يدَيْها لتتناول منه الطفلة في استغراب شديد.. لم يبدُ عليه شيء من التوجس.. كان مظهره كما هو؛ فلا يثير أي خوف فيمن أمامه.. فقط الاستغراب.. كانت لهفته على الطفلة غريبة.. إلا أنه في النهاية أعطاها لها.. مد يدَيْه إليها بها في بطء وهو يحدق مباشرة في عينَيْها..

لمست أصابعه أصابعها لمسة خفيفة.. هاتَيْن اليدَيْن!.. هاتَيْن اليدَيْن!.. بهاتَيْن اليدَيْن البيضاوَيْن الرقيقتَيْن اللتَيْن لم تنل منهما السنون بعد، جلست تعزف على "البيانو" في مسرح المدرسة.. بهما رسمت له ورودًا وطيورًا وأطفال..

عيناها أيضًا.. عيناها.. بهاتَيْن العينَيْن كانت تنظر إليه حتى يحترق.. لا ينسى نظرتها إليه في يومهما الأخير.. عيناها.. ما أسودهما.. ما أعمقهما.. عينا راسبوتين في وجه امرأة.. آسرتَيْن.. غريبتَيْن..

بدورها.. وقفت أمامه تتأمله في عجب.. لكأنها تعرفه..!.. رباه!!.. هذه الملامح؟!.. هل هو؟!.. عشرون عامًا؟!.. أكثر؟!.. ربما.. لا تعرف ولا تفهم لماذا جاء إلى هنا الآن..

بكته يومًا.. بل أيامًا.. كان فخر أنوثتها البادية ومراهقتها الوليدة في ذلك الحين.. أعطاها حبًّا ملأها تيهًا.. مشاجراته مع أترابه لأجلها.. كلمات الشعر

والزجل التي كان يكتبها لها على أوراق كراسته.. صورتها التي كان يحاول دائماً أن يرسمها. زهورها التي جمعها لها من حديثة المدرسة.. زجاجة عطر صغيرة اشتراها لها ذات مرة.. أشياء وأشياء عديدة.. منحها لها من دون مقابل..

سنين طويلة مرت منذ آخر لقاء.. أشواق.. أحزان.. وشمعة امل كانت قد خبت؛ بدأت في محاولة الحياة مرة أخرى.. ولكن.. ولكن.. ولكن.. ما كان يصلح منذ عشرين عامًا صار وهمًا وحلماً الآن.. الغريب أنهما وصلا بتفكيرهما إلى ذات النقطة في ذات الوقت.. ارتبكت وارتبك.. ملأ عينيه بها للمرة الأخيرة وملأت هي عينيها به للمرة الأخيرة. وفي لحظات أدار كل منهما ظهره للآخر وانصرف..

....

في نهاية اليوم.. وفي غرفة كل منهما الخاصة في بيته الذي يبعد عن الآخر كيلومترات طويلة.. ربما هي أميال.. ربما عصور.. ربما آباد.. أمسك هو بصورة وأوراق قديمة مصفرَّة مرسومة بالقلم الرصاص.. وأمسكت هي قصاصات ورقية قديمة مكتوب فوقها كلمات حبٍّ ضاعت منها مع الزمن..!

القاهرة في:

الأربعاء ٢٧ أغسطس ٢٠١٤م

كراسات رسم وعلب ألوان وعرائس!

مد يده التي لم تزل دامية بفعل عقابه لنفسه على محاولته لرفع صورها من على الجدران قبل سنوات.. لم تزل النُّدبة في يده منذ وقتها.. ظلت باقية بالرغم من كل الأعوام التي مضت، والتي غيرت من كل شيء في معالمه إلا ندبه يده التي قسا عليها كثيرًا.. غزا الشعر الأبيض رأسه وبدت على وجهه وجلد يدَيْه علامات الكِبَر..

مد يده بداخل حقيبة هداية كرتونية حمراء جميلة، من تلك الحقائب التي يُرسم عليها زهور وقلوب حمراء.. عبث هنا وهناك حتى استخرج منها بعض الأشياء القديمة.. علب ألوان قديمة وكراسات رسم موضوعة بعناية في أغلفة بلاستيكية، وإن لم يمنع ذلك من أن يحول لون أغلفتها..

أخرجها مع أشياء أخرى كثيرة.. ثمينة وعزيزة.. جدًّا.. عزيزة لدرجة أنه احتفظ بها لعقود طويلة مضت، وينوي أن يحتفظ بها حتى نهاية حياته..

عرائس غمرها عامل الزمن بفرشاته.. أشرطة ضفائر قديمة، وبعض الشعيرات وقلامات الأظافر والمناديل الورقية التي لم يزل يحتفظ بها للآن في جعبة خاصة.. صور.. أوراق عليها كتاباته باهتة بالقلم الرصاص والأخضر

الذي بدأ يغيب عن الأوراق بفعل عامل الزمن.. الزمن.. نعم دائماً هو المنتصر..!

..*

أشواق:

أيها الناعم في دنيا..

تذكر العهد وماضي الصفحات..

أعلى بالك؟!.. ما طاف ببالي..

من ليالٍ وعهود مشرقات؟!..

مصطفى عبد الرحمن

..*

غابت عيناه خلف سحابة من دموع، وبدأت الموجودات تترقرق في ناظرَيْه، وبدا وكأن الأمر مشهدًا سينمائيًّا يعود به إلى الماضي!..

..*

هتف الصبح وغنى بنشيد..

رائع اللحن شجيَّ النغمات..

كالمنى تقبل كالحلم السعيد..

في ليالٍ كابتسام الزهرات..!

..*

عاد به الزمن لعقود طويلة إلى الخلف.. تحولت الإضاءة الخافتة من حوله إلى نور باهر، والصمت إلى ضحكات وأصوات وحوارات.. أيام كانت له الدنيا بأسرها.. بين يديه؛ يقبل شفتَيْها ويتأمل قمرها وقت يشاء!..

مشاهد السعادة تتواتر أمام عينيه.. ذكريات الحب والفرحة، والتي تحولت إلى حزن ومرثيات..

ظل يتأمل ويتذكر..حتى وصل بذاكرته إلى اللحظة الرهيبة التي استدار فيها فجأة فلم يجدها.. سارت؛ فلم تعُد.. وعندما عادت؛ فقط عادت لكي تستكمل ترتيبات الرحيل.. لم يدرِ لماذا أصرت.. لكنه لم يزل يذكر آخر موقف له معها..!

مدت يداها الطفلتَيْن في الحقيبة، ذات الحقيبة.. منذ.. منذ ربما ثلاثين أو أربعين عامًا.. لا يهم.. المهم الموقف.. الموقف المهيب الذي لم يزل يغرس مخالبه في أعصابه.. أخذت نصف الأقلام ونصف الكراسات وتركت لها العرائس كلها.. ثم مدت يدًا مثلوجةً إلى أرفف الكتب التي لم تزل قائمة.. أخذت كتابَيْن ثمينَيْن.. أو ثلاثة.. قالت له ألا يشتريهما مرةً أخرى "الكتب ابننا الذي لم ننجبه.. دع جزءًا منه معي وجزءًا معك"..

قالت في حينه كلامًا كثيرًا عن أنها تحبه.. لكنها مضطرة.. لا يدري كيف؟!.. ولكنها هكذا هي.. طفلة المتناقضات.. قبَّلته لتثبت له حبَّها؛ ثم جرت ذاهبة مسرعة.. وراحت تصغر أمام عينَيْه؛ حتى غابت تمامًا..!



قلوب صماء!..

..*

من وقتها صار المجنون الذي تحدث عنه صلاح عبد الصبور وأحمد شوقي من قبل.. لم يعد لديه أثمن من هذه الأشياء.. صار ينظفها كل يوم ويرتبها ويتأملها..

القاهرة في:

الثلاثاء ٨ أبريل ٢٠١٤م



لحظات خاصة جدًا

مشهد افتتاحي:

"وقع الأقدام يرتفع.. إنها تجري لعلها تلحق به.. لكنها تدري أنها لن تلحق به.. هي تعلم أنها مجرد خطوات لإلقاء نظرة أخيرة؛ مع أنها تعلم أيضًا أن هذه النظرة سوف تترك لها ألعن ذكرى"..

..*.*.*

انقبض قلبها، وتوجست خيفة، عندما تلقت ذلك الاتصال الهاتفي من المحامي.. كان صباحًا باردًا ليوم شتويٍّ عاصف من أيام يناير.. إنها تذكر الاسم بالرغم من أنه قد مرَّ عليه زمن بعيد بالنسبة لها.. كان يطلب منها الحضور إلى ذلك المكان الذي تركته منذ سنين طويلة..

رفض أن يخبرها بالأمر في الهاتف، وطلب منها الحضور "لأن هناك أمرٌ مهم" يريدها فيه.. سحبت غطاءً صوفيًّا ووضعته على كتفَيْها، ودسَّت كف طفلها الصغير الذي لم يتجاوز الرابعة بعد في كفها الصغيرة، وسحبته خلفها وذهبت..

لا تدري لماذا كانت تنساق بهذه الآلية خلف استدعاء المحامي لها.. كان من المفترض أن تقول لا أو تلح في السؤال عما يطلبه لأجلها.. كانت تعلم أنه استدعاء لأمر يخص شخصًا آخر.. شخص كفَّتْ عن التواصل معه منذ زمن بعيد؛ لكنه لم يزل بعد في ذاكرتها وفي ذكرياتها....

ازدادت توجُّسًا عندما وصلت بتفكيرها إلى هذه المرحلة.. زادت من ضغطها على كفِّ طفلها الصغير؛ عادل؛ كأنها تستمد منه بعض الشجاعة.. هي نفسها كانت لا تزال تشبه الطفلة، برغم سنوات عمرها التي تجاوزت الثلاثين.. استوقفت سيارة أجرة؛ وأخبرت السائق بالعنوان..

..*

تعالي أحبك قبل الرحيل..

فما عاد في العمر إلا القليل..

جويدة

..*

تذكرت هذه الكلمات التي كان كثيرًا ما يرسلها لها بعد أن افترقا.. تذكرتها وهي تهبط من السيارة الأجرة أمام المنزل القديم.. ارتجفت قدماها أسفلها ولم تعودا قادرتَيْن على أن تحملاها.. استجمعت شجاعتها، وسحبت طفلها الصغير خلفها.. طفلة تسحب طفلاً وترتجف؛ بينما هو لا يفهم ما الذي حل بأمه..

تصعد درجات السُّلَّم.. تتوقف أمام باب شقة المحامي.. تقرع الجرس بيد الباردة كالثلج.. يفتح الباب.. ومن علامات وجهه تعرف الخبر.. تجري فتلحق باب البيت القديم الذي خرجت منه منذ سنوات طويلة، وهي لا تعلم إن كانت سوف تعود إليه أم لا.. وها هي تعود.. ولكن أية عودة؟!..

بضعة خصلات من شعر رأسها تشيب فجأة، وهي تدخل من الباب.. كان الصمت يخيم على المكان إلا من أصوات نحيب خافتة.. لم يكن عدد الحضور كبيرًا؛ فلم يكن لها كثير معارف.. فقط شقيقته الكبرى وشقيقه، وبعض الوجوه التي لا تعرفها.. ربما فاطمة زوجة شقيقه، وإن كانت غير متأكدة.. زمن طويل مرَّ منذ آخر مرة رأتها فيها..

خطت إلى الداخل خطوتَيْن.. تنسمت رائحة المكان.. نفس رائحة الهواء.. تركت كف ابنها الصغير، وجرت إلى داخل غرفة النوم ورأت ما لم تكن تحب أن تراه.. كان يبدو وكأنه قد مات وهو نائمًا.. ملامحه هادئة تحمل طابعًا غريبًا من السلام والتعب.. مرهق لكنه نقي الضمير لو كانت تعرف كيف تصيغ العبارات..

كانت ملامح الشيخوخة قد بدأت تزحف على ملامح الأخ والأخت.. منذ زمن لم ترَهما.. زمن بعيد!.. الأخت ازدادت حزنًا على حزنها القديم الذي طبع بطابعه على ملامحها الكثير من المعالم، بينما الأخ يزداد إرهاقًا ومرضًا..

رأياها؛ فسلَّما عليها؛ ثم أخليا لها المكان..!



"كلحن سرى للحظات ونتساءل جميعًا إن كنا قد سمعناه.. كلمعة برق لم يعقبها رعد.. ننظر لبعضنا البعض، ونسأل: هل رأيناه؟!"..

"فجأة جاءت وفجأة انصرفت، وبين الفجأتَيْن الكثير والكثير من الحكايا والحواديت والغرائب.. دخلنا معًا بيوت ملوك الجان، وخرجنا نضحك كالأطفال، بعد أن سرقنا بعض الخبز"..

..*

كانت هذه أيضًا بعض كلماته لها بعد أن افترقا.. هي تعلم علم اليقين أنه كان يحبها.. كل شيء من حولها يقول ذلك.. صورها وهي بعد طفلة صغيرة موضوعة في أُطُر أو متناثرة على الآرائك.. بعضها موضوع في إطار إضاءة خفيفة تبرزه.. صور زفافهما.. لا تزال موضوعة على الجدران..

تذكاراتها تملأ المكان.. مصحف والدها الكبير.. طرحة الصلاة الخاصة بها، ومسبحتها.. وبعض أساورها التي كان قد ابتاعها لها من محلات العاديات في الحسين والأزهر.. عرائسها الصغيرة موجودة.. لا تدري لماذا ظنت أن الأخيرة تنظر لها بكثير من الحزن الممزوج ببعض العتاب.. نظرة طفل ينظر لأمه التي فارقته طويلاً من دون أن تخبره أو تأخذه معها..!

حتى ما تركته أصابعها هي قبل الرحيل؛ لم يزل موجودًا، ومن بين ذلك بعض الشرائط القماشية والورقية الجميلة الملونة الموضوعة فوق خشب



المطبخ لإعطائه صورة جمالية، والبعض الآخر لم يزل ملفوفًا حول المصابيح الحائطية الصغيرة..

كل شيءٍ لم يزل في موضعه.. كلا.. إنها هي ذاتها لم تزل في المكان.. هو قال لها ذلك ذات مرة.. قال لها: لا تزالين هناك يا طفلتي الصغيرة.. كل شيء في موضعه منذ انصرافك.. لم ينقص سوى أنت؛ أما غير ذلك؛ فهو لم يزل ولن يزل..!

لقد برَّ بوعده لها.. عاش معها ومات وهي من حوله..

..*

بكت كثيرًا أمامه.. لم تدرِ لماذا لم تتقبل فكرة موته إلى الآن؟!.. تتصور أنه سوف يستيقظ لكي يعد لها الطعام والقهوة "النسكافيه" كما اعتاد، قبل أن يجلس إلى مكتبه لكي يقوم بعمله المسائي.. طفلها الصغير ينظر إليها بدهشة واستغراب.. لماذا تبكين يا ماما؟!.. هكذا قال لها، وهكذا ضمته في أحضانها وبكاؤها يزداد حرارة.. تمنَّت كثيرًا لو كان هذا الطفل منه..

تجولت في المكان، حتى وصلت إلى قدس أقداسه.. مكتبته الكبيرة.. كان كل شيء نظيف وفي موضعه كما اعتادت منه.. مكتبها الصغير الذي كانت تجلس إليه، كان هناك.. كل محتويات الأدراج كما هي.. أوراقه هو الشخصية وضعه مع بعض تذكاراتها الأخرى على سطح المكتب، أما الأدراج؛ فلم تزل المحتويات كما هي منذ أن تركتها..



مدت يدًا مرتجفةً، تقلب بها الأوراق.. أوراقها وأوراقه.. هذه كتبتها له يوم أن التقيا لأول مرة، وقالت له فيها إنها تحبه ولن تتخلى عنه أبدًا.. أبدًا؟!.. هل حقًّا أبدًا؟!.. وهذه كتبها هو لها، يقول فيها: "أتأمل وجهها القسيم، وأتحسس الوجنتَيْن بينما نسمة لطيفة تداعب بعض الخصلات في لحظات أصيل مختلسة، تظللها شمس بعيدة.. ثم تنتهي القصة فجأة؛ كما بدأت فجأة، ويتساءل صاحبنا: في هذا الزمان، وفي هذا المكان.. هل كانت هنا حقًّا؟!"..

تذكرت رائعة تشارلز ديكنز "الآمال الكبرى".. كانت قد قرأتها وهي بعد صغيرة، ولم تتصور أبدًا أن يوجد في الواقع الإنساني من يمكنه أن يظل على هذا الإخلاص والوفاء..

ساعة كاملة استغرقتها مع أوراقه، والمزيد من التجوال، في المكان.. "عِدَّة" القهوة الخاصة به، والتي يبدو أنه القدر لم يمهله غسيلها.. لم تزل رائحته فيها.. في الحقيقة؛ لم تزل رائحته ورائحة أنفاسه في المكان.. أمسكت قميصه وتنسمت رائحته في عمق.. لم تدرِ بهذا الذي تفعله.. لكنها تفعله..!

أصوات الهمهمات تتعالى مع وصول بعض معارفه وأصدقائه.. كانوا يدخلون بأحذيتهم إلى المكان.. كادت أن تقول لهم أن يخلوعها؛ لأنه سوف يتضايق.. لأنه يحب النظام والنظافة.. لذلك أحب العزلة.. لكنها انتبهت إلى أنه مات، ولن يحزن بعد اليوم..!

لم تُلقِ لهم بالاً.. كانت تريد أن تتشبع بالمكان وروح المكان؛ قبل أن يغادره وتغادره للأبد، وينهار كل ذلك.. طبعًا.. سوف ينهار كل هذا النظام، وذاتها نفسها التي على الجدران بعد خروجه من المكان؛ حيث سوف يأتي ساكن آخر يسكن المكان، ويزيل كل ذلك..

ببساطة لن تكون هي هنا من بعده.. لن تكون السيدة!..

..*

فتحت جهازه الذي كان يعمل عليه.. وجدت علم مصر كما هو، بينما صورها في كل مكان أيضًا.. لم تقرأ الكثير؛ حيث ناداها المحامي لكي يخبرها بما أراد أن يخبرها به.. لاحظت أن هناك بعض الأوراق الملصقة على المكتبات المختلفة.. هذا غريب وجديد.. لم يكن هو من هواة هذا الأمر؛ لأنها كتبه وهو يحفظ أماكنها كلها، بتقسيماتها.. فلم تفهم.. هناك شيء غريب في هذا الأمر.. إلا أنها عندما جلست مع المحامي فهمت..!

قال لها إن الراحل قد أوصى لها بكتبه.. ليست كلها.. فقط ما اعتبرته هي في أيام زواجهما، أنه يخصها.. بعضها كان ثمينًا حقًّا، وكان يبدو أن هذا الأمر فيه مشكلة مع إخوته لولا أنه كان قد اتخذ كل الترتيبات والإجراءات القانونية لضمان تنفيذ ذلك..

أمسكت بأول مجموعة تخصها.. بعضها وجدت فيه أوراقًا كانت قد وضعتها فيها منذ.. منذ سنوات طويلة لم تدرِ عددها.. تأملت المكان الذي شهد أجمل أيام حياتها، والذي هو على وشك أن يزول..

ظلت برهة وحدها.. لم تدرِ ماذا تفعل.. ثم فعلت ما تجيد أية طفلة فعله.. جلست على الأرض وأخذت تبكي طويلاً.. بينما يتعالى لغط الكلام من حولها حول كيفية غسل الراحل وتشييعيه ودفنه في مسقط رأسه.. إجراءات طويلة؛ لكنها للأسف لم يعد لها فيها دورٌ؛ لأنها ليست ذات صفة بالنسبة إليه أمام المجتمع، ولأنها لم تعد سيدة المكان!..

القاهرة في:

الأحد ٢٦ مايو ٢٠١٣م



مسافر وحيد

الفصل الأخير من قصة طويلة جدًّا!..

".. ضوء أصفر بعيد يقف وحيدًا.. بعيدًا، وفي الضباب الذي يغطي هذه الأرض القاسية، الرطبة بالندى في لحظات الليل الحالكة هذه؛ بدا وكأنه يعبِّر عن الموت.. الأصفر في الفن يعبِّر عن الموت.. السام.. هكذا خطر له وهو يخطو فوق الرمال التي تغوص فيها قدماه..

الضباب يحجب الرؤية إلا أن الضوء الأصفر الكالح بقي صامدًا.. شاحبٌ، لكنه ظاهر.. مثَّل له الأمل في النجاة بعد طول تيهٍ في صحراء غامضة قاتلة..

ظل يضرب الأرض بقدميه في عزمِ رجلٍ بلغ به التعب مداه، مشفوعًا بأمل الضوء الأصفر الباهت.. ولكنه وعندما وصل إليه مسافرنا الوحيد مرهقًا، قرب الفجر؛ لم يجد حوله أحدًا.. فقط بضعة خرائب وغرفة واحدة يبدو فيها هيكل عظمي متداع لشخصٍ بدا من ملابسه، أنه كان – بدوره – مسافرًا وحيدًا يقطع ذات الصحراء..

أسئلة سخيفة فعلاً طافت بمُخَيِّلته في حينه.. منها مثلاً؛ تُرى هل علم صاحب الهيكل العظمي، في حينه، أنه قد وصل إلى النهاية؟!.. ثم إنه تُرى مَن الذي أضاء هذا المصباح؟!.. وكيف هو مستمر في ضيائه الزائف هذا حتى الآن، بعد كل هذه السنوات؟!.. لم يدرِ أنه سوف يموت من دون أن يعرف أية إجاباتٍ!..

على كل حالٍ، تذكَّر وهو ينام بجوار الهيكل العظمى، وقد بدأ يفهم مصيره ويستسلمٍ له؛ تذكَّر قصة قديمة، لفراشة ماتت في سعيها إلى النور الذي اتضح في النهاية، أنه نار تحرق!..

إلا أنه سرعان ما طرد هذه الأفكار من رأسه عن الأسئلة والإجابات المستحيلة، والفراشات والنيران الخادعة.. فقط بدا له أن كل ما يريده؛ إنما هو فترة راحة طويلة.. فأغمض عينَيْه ونام!"..

القاهرة في:

الأحد ٩ ديسمبر ٢٠١٨م



وجه خارج إطار المُعتاد!

على طول الحياة.. نقابل ناس!!..

..*

كان الملل هو السمَة الغالبة على حالته المزاجية في هذا الصباح.. لم يكن راغبًا في مواصلة حياته على وتيرتها.. ذات الوجوه.. ذات الأحاديث والكلام.. ذات المشاكل.. حتى إنه كان يظن أن الناس والحياة عبارة عن شريطٍ سينمائي يعيد نفسه تلقائيا كلما انتهى..

لكن دائمًا كان ما يقابله ذلك الحاجز الذي يجبره على عدم التمرد.. العمل.. ليس لخوفه من فقدان فرصة أو خشيته من عقابٍ.. فقط هو كان يحب أنْ يؤدي ما عليه من التزاماتٍ.. والعمل هو أكبر التزامٍ في حياة الإنسان بعد العبادة..

في ذلك الصباح خرج متأخرًا عن موعده قليلاً.. لا بأس بقليلٍ من التمرد.. قليلٌ فقط وليس تمردًا كاملاً؛ وإلا كان الانفجار هو النتيجة الحتمية لذلك لواحدٍ في مثل ظروفه النفسية والاجتماعية؛ حيث هو.. وحيدٌ.. وحيدٌ تمامًا منذ أنْ ماتت أمه..

سار الهوينى في الشارع الرئيسي الذي اعتاد الركوب منه "مواصلةً" لكي يذهب إلى محطة مترو الأنفاق القريبة.. كان اسمها "مَسرة"، ولكن لم يكن في حياته أي شيءٍ من هذا الاسم.. حاليًا على الأقل.. كان لا يركب "مواصلةً" بعينها.. أي وسيلة فقط لكي يذهب إلى مترو الأنفاق لكي يذهب إلى عمله..

لا يدري لماذا ركب هذا الأوتوبيس.. هذا الخط في الأصل لا يأتي من هذه الجهة أبدًا، فقط ساقه القدر إليه اليوم بسبب زحام الشارع الرئيسي الآخر الذي من المفترض أن يمر منه عربات "الميني باص" العاملة على هذا الخط.. المهم أنه رَكِبَ.. كانت العربة خاليةٌ، ولذلك وجد مكانًا للجلوس.. جاءت جلسته بجوار شاب صغير السن.. كان جالسًا يحدق في الفراغ خارج النافذة.. كان لا يبدو عليه أنه يلاحِظ أي شيءٍ من معالم الطريق المارة إلى جواره.. تأمله صاحبنا قليلاً ثم انشغل عنه بمراقبة وجوه الناس كما اعتاد..

لم يلفت نظره أحدٌ بعينه فيهم.. لذلك راح بدوره يتأمل الفراغ خارج النافذة إلى جواره.. جاءت محطة تدْعَى "عمر أفندي".. رَكِبَ فيها من رَكِبَ من الناس.. ذات الوجوه المتشابهة.. بالتأكيد لديهم ذات الحكايات المتشابهة.. ذات التاريخ.. ذات المشكلات.. ربما ذات الأسماء!!.. كلهم.. كلا ليس كلهم.. ربما كلهم، إلا واحدةً فيهم..!!...

..*

لنحيا قليلاً في هذه الحياة..!!

..*

كلا لم تكن جميلة؛ فالجميلات كثيراتٌ هذه الأيام، ولكنهم "يتوهون" في زحام البشر كغيرهم.. ولكن لا داعي للاستعجال، ولنأخذ المشهد من أولِه.. صَعَدَتْ صاحبتنا هذه إلى عربة "الميني باص".. صَعَدَت بروحِها وجسدها، وليس بجسدها فحسب.. وعندما نقول روحها وجسدها، فنحن نَعني روحًا وجسدًا حقيقييْن.. لم يتلوثا بغبار الحضارة ولا الزحام.. روحٌ حقيقيةٌ تتحرك على قدمَيْن تصعد إلى مواصلةٍ عامةٍ، ولا أحد يدري هل صعدت لتبْهِجنَا أم لكي تزيد من حجم معاناتنا مع حرماننا أقدس وأهم حقوقنا في هذه الدنيا.. حرماننا من وجود لمحةِ هواءٍ باردٍ لأرواحنا وسط صحراء الحياة الساخنة.. اللافحة..!!

لا أحد يدري ما الذي حدث له عندما رآها من بعيدٍ.. من قَبْلِ حتى أنْ تركب السيارة، تمنى أنْ تركب معهم ذات السيارة.. انجذابٌ روحي عميقٌ وراحةٌ جمةٌ غمرا نفسه عندما رآها.. حتى من قبل أنْ تلتقي العيون.. سلامٌ عظيمٌ راح يغزو نفسه وعقله برغم إرهاقه، وبرغم الزحام الخانق، وبرغم كل شيءٍ.. ربما هي كيمياء الروح.. ائتلافها.. لا أحد يعلم.. لا أحد سيفهم حتى لو حكى، وأسهب في الحَكْي..

راح يتابعها بَعَيْنَيْه متمنيًا أنْ يحظى ولو بلَفْتَةٍ منها.. صَعَدَتْ بالفعل، ثم جاءت وقفتها بجواره.. (!!)..

كان جالسًا، ولكن الحرج منعه من الوقوف لها، الحرج مع ما باتت عليه نفوس البشر وتفكيرهم من سوءِ نيةٍ وسوادٍ.. فقط راح يتأملها خلسةً من فَيْنَةٍ إلى أخرى.. يتأمل هذه المعجزة الواقفة بجواره.. كانت جميلة حقا.. تمتلك من المواصفات الجسدية ما يغري العذل بتحطيم سيفه كما يقول شعراء العرب القدامى.. وجهًا مَليحًا ملأته الحياة بالهموم والأحزان.. هل تصدقون يا سادة؟!.. هذ الجمال وهذه الروح حزينة؟!.. أي ظلم؟!.. مَنْ يكون سعيدًا إذن في هذه الحياة، إذا ما كانت هذه حزينةٌ؟!!.. سحقًا للحياة إذن!!..

..*

يا وجهًا يعبق مثل حقول الورد..

ويركضُ نحوي كحصاني..

نزار

..*

ولكن دعوني أصفها لكم أولاً.. وجه جميل هو أول ما يطالعُكَ فيها.. عينان حساستان صريحتان لأقصى درجة، تنقل إليكَ مشاعرها من دون مواربة أو تضليل، فقط ما أنْ تنظر إليها حتى تنتقل إليكَ أفكارها ومشاعرها، ورُبما أحلامها أيضًا.. وجه يعلو رقبة طويلة خمرية اللون تنزلق

فوق صدر عارم ناهد تعلم هي مقدار حُسْنه وتأثيره، فتعمدت أنْ ترتدي ما يغطيه بالكاد؛ فقط "بادي" أسود يغطي إلى ما فوق النهدَيْن مباشرةً، وقد ارتدت عليه "جاكيت" مفتوح الصدر وردي اللون، وإنْ كان منسجماً تمامًا مع لون بشرتها الخمرية الناعمة..

كانت بسيطة في ملابسها، وإنْ كانت تعرف كيف تُظْهرُ أُنوثَتها بما ترتديه.. بنطال بلوجينز أزرق عَجَزَ مع "الجاكيت" الوردي عن مداراة سحْر وجمال جسدها الآسر.. كان جسدها يبدو وكأنه قد استحضر من رقة وجمال وتأثير رُوحها الكثير.. لم يكُن مجرد جسد لفتاة جميلة.. كلا بل كان عاصفةً.. إعصارًا من الأنوثة عَجَزَت الملابس البسيطة التي كانت ترتديها عن لَجْمها، فراح يُوزع سحْرَه على المحيطين بها، وهو أولُهم.. هي ذاتها كانت قلقة.. قلقة رُوحًا وجسدًا..

روح حساسة تظهر من نافذة عَيْنَيْها ترغب في الانطلاق بعيدًا بعيدًا.. إلى عالم آخر أكثر هدوءً ورُقيا، وأقل غبارًا.. وجسد ندي رائع.. أشبه بأغصان خضراء لا تزال مُبتلة بفعل ندى الصباح.. كان من الواضح أنه مُتعب.. مُتعب وراغب في خوض تجربة تُرضي غروره، وتمسح عنه غبار الحياة.. تجربة يُبْرزُ فيها أنوثتها من دون قيود أو حدود.. تستلقي فيها عارية أمام حبيبها أو بين يديه، وتترك لنفسها وله العنَان.. يفعلان ما لا يجرؤان- حتى- على التفكير فيه..

لم يكُن الجسد مُجرد غلاف خارجي مثل غيره من الأجساد التي نراها ونحتك بها عمدًا أو من دون قصد.. كان معنىً.. كان طُمَوحًا.. كان حياةً كاملةً بكل جوانبها الروحية والحسية.. عالم كامل بكل مفرداته!!..

قاطع تأمله لها تساؤل مهم طرحه على نفسه في هذه اللحظات المُقدسة.. تُرى ما الذي تُفكر فيه الآن؟!.. وكيف لهذه الروح الواقفة أمامه أنْ تقضي الأوقات التي تكون فيها وحدها؟!...

..*

يا جَسَدًا يقطع مثل السَّيْف..

ويقذِفُ مثل البركانِ..

نزار

..*

هو لا يعلم بطبيعة الحال ما الذي تفكر فيه، وكيف تقضي وقتها وحيدة.. بالتأكيد هي وحيدة.. أصابع يديها الجميلة كانت خالية من أي قيدٍ ذهبي أو فضي قبيح.. كما أن هذه الروح وهذه اللفتات القَلِقَة منها تقول إنها وحيدة.. وحيدة، ومثقلة.. كان يتمنى في هذه اللحظة أنْ يحمل عنها بعض هذه الأثقال.. لا يدري.. لكن هل من الممكن أنْ يحبها في هذه اللحظات القليلة؟!.. لا يدري.. لا يدري.. ولكنه كان واثقًا من أن هناك شيء ما

أكبر من مجرد الانجذاب لجسدٍ وعينَيْن جميلَيْن.. هو لم يشعر في حياته أبدًا بانجذابٍ جسدي لفتاةٍ لا تصيب روحها مِنْه شيئًا..

..*

ويستمر في التأمل..!!

..*

ونعود إليه.. وإلى مشهده هذا أمامه.. كانت أهم ملاحظاته عليها تأكدِه من انطباعه الأول عنها.. وهو أنها حزينةٌ.. حزينةٌ وقد بدا ظاهرًا عليها الكثير والكثير من المُعاناةِ، تُواجهها في هذه الحياة القاسية الوحشية.. ولَكَمْ تَمَنى لحظتها أنْ يحتويها بين ذراعَيْه، وأنْ يُربت على ظهرها وكتفيها، مُمَسدًا لها خُصلات شعرها البُني الطويل الجميل.. ثُم يُقبِّل الوجنتَيْن والشفتَيْن الناضجتَيْن وما وراء أذنيها ورقبتها لحظاتٌ حميميةٌ وتمناها معها، وحاول تخيلَها.. ثم شعر بالخجل من نفسه..!!.. هل هكذا ينظُرُ لها؟!..

كانت قد صبغت بعض خصلات شعرها بلون ذهبي جميل، وتركته لينزلق على ظهرها في انسابية ونعومة باستثناء بعض الخُصْلات التي جمعتها بشريط حريري أبيض شفاف.. هل من أمل أنْ ينفرد على كَتِفَيْه؟!.. هل من أمل في أي شيء؟!..

تنهد قبل أنْ ينفض هذه الأفكار عن رأسه.. إنْ هي إلا دقائق، ويفترق كل في طريق.. إلا أنه بعد لحظات لم يستَطِع أنْ يمنع نفسه من تأملها مرةً أخرى.. كانت قريبةٌ جدا منه؛ حتى أنه اشتم رائحة جسدها العارم.. كلا.. لم تكُن تضع عطرًا أو حتى مكياجًا.. كانت فتنتها تملأ العالم.. من دون أية مُحسنات..

التقت العينان أكثر من مرة.. كان من الواضح أن هناك تأثيرًا ما متبادلاً.. راحت تقترب من حيث يجلس.. رَفَضَتْ الكثير ممن وقفوا لها لكي تجلس، حتى عندما شَغُرَ المقعد الذي أمامه، واضطرتْ للجلوس، لم تلبث أنْ نهضت لتبادل الأماكن مع شخص معاق كان يقف في أول السيارة مِنْ بعيد.. فضلت الوقوف.. نظراتٌ خاطفةٌ تبادلناها.. يدها القلقة مثل رُوحها، راحت تعدو رائحةُ غاديةٌ.. بالقرب من يدي التي أمسكت بالعارضة الحديدية لمسند المقعد الذي أمامي..

صراعُ إحجام وإحجام كما يقولون في عِلْم النفْس.. اليَدُ القريبة ترتجف.. ارتجافة غير ملحوظة، إلا أنه انتبه إليها.. تبتَعد وتقترب، ودونما أنْ أدري انزلقَتْ عيناه مرةً أخرى إلى نهدَيْها.. حدقَ طويلاً في صدرها، كان نهديها القلقَيْن يتحرك بفعل أنفاسها الحارة وحركة السيارة مع مطبات الشارع.. يراهما أو يتخيلُ أنه يراهما من خلف ما ارتدَتُه من ملابس، وقد استقرا في هدوء قَلق.. وقتها تشعُر وكأنك ظامئ إلى شيء ما.. لا تدري كُنْهَهُ.. لا تدري كُنَهَهُ، ولكنك تريد أنْ تفعله.. قد يكون هذا الشيء مُجرد نزوة أو رغبة



مكبوتة تبحث عن وسيلة للانطلاق.. قد يكون هذا الشيء رغبةً في تحسس صدرها العاري وقد استقرت هي بين ذراعيه.. هكذا فكر.. هكذا تأمل.. هكذا تخيل..

هو يعطي بدوره قيمةً كبرى لصدر المرأة ونهدَيْها.. معاني الحياة الجميلة كلها تكمُن في هذا المكان الواسع المُتسع.. الذي كان سخيا للغاية لديها.. الحب والعاطفة والحنان والأمومة والسكينة.. كُلها.. كلها هناك.. فقط لو تقبلين يا سيدتي.. دقائق فقط.. لكنتُ..... قد حققتُ على صدرك كل أحلامي، وخضت مع بواباتِ أنوثتك، أقوى معاركي.. أدك فيها حصونك، وحصون تعبي.. هكذا فكَّر..

..*

جاءت محطته.. وقف لها لكي تجلس.. ارتبكت.. لم ترَ الكرسي الخالي.. فقط رأته هو.. كان ارتباكها واضحًا لدرجة أنها انتبهت له هو فقط، ولم تنتبه لأصوات الناس المحيطة بهما ممن يستعدون للنزول لإخلاء ممر "الميني باص" الضيق، ولا لصوت الرجل الذي كان جالسًا بجواره ينبهُها إلى شغور المِقْعَد لكي تجلس.. لم يعُد في الكون في تلك اللحظات أمامها سواه.. صورته هو فقط ببذلته البسيطة الرمادية، والتي باتت - صورته هذه - على خلفية بيضاء مبهرة الضياء أمامها.. هو ذاك الذي يُمكن أنْ يلعب دَوْرَ البطولة في حياتها قد ظهر ووقف أمامها.. والآن هو منصرفٌ!!.. يالقسوة هذه الحياة!!...



نزلت وراءه، وإنْ احتفظت بمسافة بينها وبينه.. هبط إلى محطة المترو القريبة.. لحقت به، وقد لمحها هو تتبعه بطرف عَيْنه.. كان يعلم أنها ذاهبة إلى مكان آخر.. لقد سمعها وهي تسأل السائق عما إذا كان ذاهبًا إلى هناك.. لا تفسيرًا آخر.. هي جاءتْ وراءه.. وصلا إلى الرصيف معًا تقريبًا.. حافظت على المسافة بينهما، وإنْ قلت كثيرًا.. دَنَتْ، ودنا.. وجاء القطار..

المشهد بعد ذلك كان قدريًّا للغاية.. وقفتهما والمسافة بينهما، جعلته هو يقف أمام أول باب لإحدى عربات المترو القادم، بينما جاءت وقفتها هي أمام آخر باب للعربة السابقة على العربة التي جاءت وقفته أمام بابها..

ترددا لحظات، حتى ارتفع صوت "زنان" القطار مُعلنًا قُرب إغلاق الأبواب.. لم يُضِيعا لحظةً واحدةً.. تحرك هو في اتجاه الباب الذي تقف أمامه، بينما تحركت هي في ذات اللحظة تقريبًا باتجاه الباب الذي يقف هو أمامه..

اختلفت الاتجاهات، وعندما انتبها للمُفارقة، كانت أبواب القطار قد أُغْلِقَت بينما هو بالداخل، وهي خارج القطار؛ حيث ارتبكت لما رأته تحرك هو باتجاهها، وترددت لحظات كانت كافية لإغلاق القطار لأبوابه.. القطار الذي أطلق صفارته الطويلة مُعلنًا مغادرته للمحطة، وضياع هذا الوجه منه.. وسط الزحام.. ووسط الغبار!..

القاهرة في:

الأربعاء ١١ نوفمبر ٢٠٠٩م

يوميات رحيل سيدة عظيمة

الساعة التاسعة صباحًا من اليوم المشئوم:

استيقَظَتْ هي في مثل هذا التوقيت بالضبط.. متأخرة قليلة عن موعدها اليومي للاستيقاظ.. قالت له إنها متعبة قليلاً؛ فلم تستيقظ في موعدها.. لكن لم يكن يبدو عليها أية بوادر ألم أو تعب.. قامت فأعدت الإفطار وأزالت الغبار عن المكان.. لم تكن تعلم أنها تقوم بآخر واجباتها تجاههم..

..*

الساعة التاسعة والنصف صباحًا من اليوم المشئوم:

كانت غاضبة منه لسبب لا يذكره.. ولكنها كانت جميلة وهي تعاتبه.. علمته أن يعرف في وجهها الألم والحزن والغضب.. نادرون هم من كانوا في وضوح وجهها وضميرها.. ارتدى ملابسه وسار إلى عمله.. لم يزل يذكر زاوية وجهها على "الطرقة" الطويلة أمام بيته القديم؛ تزيل بعض الغبار عن باب المنزل، وهو يهبط درجات السُّلَّم خارجًا إلى الشارع..



الساعة الثالثة من أصيل اليوم المشئوم:

عاد من عمله.. وجدها أعدت لهم بعض الطعام الجميل.. داعبها على مائدة الغداء.. ضحكت.. لم يجدها أجمل مما كانت عليه يومها وهي تضحك.. كأنها تستبشر بما هو قادم من راحة أبدية لها.. انتهى الغداء.. أعد لها بعض الكاكاو؛ إلا أنها طلبت منه إرجاعه إلى الثلاجة؛ خوفًا من ارتفاع السكر.. وبدأت الأمسية الأخيرة..

..*

الساعة العاشرة والنصف من مساء اليوم المشئوم:

في مثل هذه اللحظة بدأ الألم.. نادت عليه.. كان قد استيقظ بعد غفوته المسائية، وجلس إلى أوراقه ليكتب كعادته كل مساء.. للقدر؛ كان يستمع إلى أنشودة تقول:

أنا بها وفيها..

كساق السنديان..

كالطود كالبنيان..

اضرب فى الأزمان..

أرقى بلا حدود..

وأملأ الوجود..

وأحضن الأكوان..

كانت هي بالنسبة له هكذا..

بدأت رقصة الألم المحمومة.. لم تزل الأنشودة تقول:

لكن بغيرها..

كطائر غريب..

وضائع وحيد..

كانت تنتهي أمامه، وهو عاجز على أن يفعل لها أي شيء!..

كعاجز وهش..

أوهى من عود قش!..

جرى كالمجنون إلى الشارع لكي يحضر الطبيبة التي تتابع حالتها، ولكن عندما عاد؛ كان كل شيء قد انتهى!..

..*

ليلة اليوم المشئوم واليوم التالي:

قضى ليلته بجوارها.. يحاول أن يدفئ يدها بين كفَّيْه كما اعتاد في مثل هذه الليالي الباردة.. كانت تصحو على لمساته، وتبتسم في وجهه.. لكنها هذه المرة لم تصحُ، ولكن وجهها كان كالمعتاد؛ يبتسم.. برغم كل شيء كان يبستم.. وفي الصباح؛ خرجت هي من بيتها للمرة الأخيرة؛ تاركةً له خلفها مستقبلاً جحيميًّا؛ مملوءًا بالذكريات.. لم يكن يعلم أي شيء في هذه اللحظة عن اللحظة التالية.. لكنه كان على يقينٍ واحدٍ.. أن حياته من بعدها قد انتهت.. مهما عاش من سنوات تالية..

ووريت الثرى، ووراى اللحادون خلفها كل الأفراح!!..

القاهرة في:

الثلاثاء ٢٣ ديسمبر ٢٠١٤م



الطريق

دائمًا ما يرى ذاك الطريق في الحُلْم.. طريقٌ واحد، متشقق قديم.. ولكنه يقوده في كل مرة إلى مكان مختلف.. يلتقي أناسًا كُثْرًا مختلفين بدورهم.. أحيانًا يعود به إلى ذات المكان ويكمل الحكاية التي بدأت ولم تنتهي بعد..

في أحد الأحلام شاهد نفسه يحتضن طفلاً صغيرًا يرتدي الأبيض.. لم يلقِ بالاً في البداية إلى ملامحه.. في الحلم التالي عندما أوصله ذلك الطريق إلى نفس المكان؛ انتبه إلى أن الطفل يحمل ذات ملامحه وهو صغير.. لكن الطفل جرى بعيدًا عنه..

كانا يقفان مع آخرين في مكان أبيض بهيج، ينضح بضياء الشمس.. شمسٌ بيضاء رفيقة.. كان كل ما حولهما أبيض نظيفًا.. كان الطفل يرتدي ثياب الإحرام الخاصة بالأطفال، بينما حولهم أسوار المسجد الحرام، وعلى البُعد يبدو جبل "عرفات" بقمته البيضاء الناصعة بدورها.. لم يرَ نفسه، ولكنه شَعَر أنه يرتدي ثيابًا مُخَلَّطة بين الأبيض النظيف والاسود المُتَّسِخ..

لا يدري لماذا شعر من ذلك الحلم، أن النهاية قد دَنَت.. وبقيَ أمامه السؤال المروِّع: هل يعني هذا الحُلْم أنه سوف يعود كما كان؛ طفلاً صغيرًا



نقيًّا، ويتخلص من ذنوبه وأدرانه – ذات طريق، وذات لحظة – أم أن هذه الرؤية مجرد رؤية "خبرية"؟!.. تخبره فقط بما جرتْ عليه به عوائد الدهرِ بين طفولته وكِبَرِه، وما صنعت به الدنيا، وما صنعت به نفسه؟!.. لا يدري..

حقًّا لا يدري.. لكنه كفَّ عن محاولة فهم نفسه منذ سنين بعيدة.. منذ أن فقدها ذات طريق!"..

القاهرة في:

الأربعاء ١ مايو ٢٠١٩م



عطش!

كوازيمودو الحزين.. الذي منحته الجميلة شفقةً، فأحبَّها في صمت.. كوازيمودو الحزين ينظر إلى صورة فاتنته في صمت.. كوازيمودو الحزين؛ عاش طيلة عمره يبكي عليها في صمت..

دائمًا فرولو الشرير هناك يقضي على الأمل.. فرولو لا يمثِّلُ له شيئًا سوى أنه شيطان قد حرمه منها.. هنا نقول حقيقة.. كوازيمودو المسكين كان طفلاً حتى عندما كبُر.. ظل طفلاً ينظر لفاتنته على أنها أمه التي رحلت وتركته منذ زمنٍ بعيد..

كتب ذات مرَّةٍ يقول فوق ورقة منسية من دفتر أوراقه القديم مصفرِّ الأرجاء: "هل تعلمين ما العطش أزميرالدا؟!.. إنه أنْ أنظر إلى عينَيْكِ ولا أنال منهما نورًا.. أن أنظر إلى شفتَيْكِ ولا يكون من حقِّي أن أنهل من ينبوعهما قطرة.. أن أنظر إلى ضياء وجهكِ ويظل الظلام قاتمًا فوق سمائي"..

كوازيمودو المسكين أسرَّ كلماته هذه فوق أوراقه، ولم يبدها لها أبدًا.. ليست لديه الشجاعة أبدًا لأنْ يقول لها ذلك.. كوازيمودو الذي نعنيه هنا - بخلاف القصة الأصلية لفيكتور هيجو - ظل حزينًا ووحيدًا حتى مات ذات يومٍ.. من العطش!..

القاهرة في:

الإثنين ١٧ يونيو ٢٠١٩م

"ندى وأم عمر"..

(قصة قصيرة جدًّا عن رحلة طويلة)..

طرقَتْ السيدة العجوز المتهدمة باب جارتها الجديدة الشابة، "ندى"، التي لم تزل بعد عروسًا.. طلبت منها أن تخرج معها للبحث عن ابنها "الصغير الضائع"، "عُمَر"..

قالت لها إنها لم تجده في غرفته، وهي عليه بعدُ قلقة، مع "طول" فترة غيابه، وأنها تخشى أن يكون قد تاه عن المنزل..

بحثتا كثيرًا في الجوار.. ولما لم تعثرا عليه، قالت لها العروس الشابة: يا جَدَّتي.. هيا بنا نذهب للمنزل لعله عاد.. قالت لها الجدة في حزن: ولكننا لم نجد بعد "عُمَرًا"!!.. ولكنك لعلكِ تعبتِ.. هيا بنا..

تكرر ذلك كل يوم.. وما عاد "عُمَر"!..

ثم، وذات أصيلٍ قريب، طرقت جارة أخرى بيت العروس الشابة.. وقالت لها: يا جارتي الشابةً الطيبة.. إن "عُمَرًا" قد مات منذ عشرة أعوام أو يزيد!!.. ولكن أمه لا تريد أن تصدق ذلك.. فلا ترهقي نفسك بالبحث عنه!..

بعد عشرين عامًا أخرى، وقفت "ندى" التي لم تعد بعدُ عروسًا شابة، أمام جثمان "أم عُمَر"، وهي تبكي وتقول: وا أُمَّاه.. كم سوف أفتقد رفقتك كل صباح في البحث عن "عُمَر".. ولكنكِ لعلك واجدةً إياه حيث ذهبتِ!!"..

القاهرة في:

الجمعة ١ ديسمبر ٢٠١٧م



فتاة الورد

الفتاة التي كانت تضع الورد في جيب فستانها، وفي خصلات شعرها الأسود الطويل، اعتادت أن تقف على مفرق الطريق الذي يقصده كل يوم، توزع الزهور والمناديل المعطرة على السيارات والمارَّة..

ظلَّت هكذا أيامًا، فكان يذهب إليها لكي يأخذ نصيبه من زهورها ومناديلها، ومن ابتساماتها، ويتنسم عطرها.. لا أحد يعلم من هي ولا من أين جاءت.. لم تكن تتقاضى أموالاً عن هذا الذي تقوم به.. ثم فجأة اختفت!!..

تلك الطفلة، التي كانت تبيع ماء الورد، مع زهرها ومناديلها المعطرة، كانت تغني بصوت خفيض جميل، أغنيات أطفال، جميلة بدورها..

منذ أيام؛ بدت عليها سيماء الحزن، ولم تعُد تغني، وبعدها لم تعُد تقف.. بحث عنها في كل أرضٍ وسماء؛ فلم يجدها؛ فعلم أنها كانت منذ البداية، من بنات أوهامه!..

القاهرة في:

الثلاثاء ٢١ مارس ٢٠١٩م

خواطر عن ذاتِ أمسية التقيناها

من رسائله إليها، والتي لم تعُد تصل في أيام مدينته الأخيرة:

.....

لولا وجودك؛ لكنت الآن أضعف.. بل إنني بكِ أحيا.. بكِ تكتمل إنسانيتي ووجودي..

حبيبتي الصغيرة.. لا أستطيع أن أصف لكِ كيف شعرتُ عندما أشرق وجهكِ بالمعنى الحرفي لكلمة إشراقة؛ عندما رأيتكِ تبتسمين، ثم تضحكين، وسط أضواء هذا الركن الذي جلسنا إليه في ذلك المكان من مدينتنا الجميلة الناعسة تحت تنويعة أنوار غروب ذلك اليوم..

رأيت الطفلة القديمة، والمراهِقة الشابة الفاتنة، تُبعث من جديد، برغم معالم المعاناة التي حفرتها سنين الكفاح في هذه الدنيا على معالم الوجه الجميل الذي – برغم ذلك – لم يفقد بريقه وألقه وجماله.. وجهكِ هو في الأصل. أجمل أغنية غنتها الحياة.. بل إن منه تنبع أصل شجرة الحياة..

كانت أجمل اللحظات، عندما أطلقتِ العنان لروحك البسيطة البريئة لكي تظهر وتطفو إلى السطح.. وقتها تأكدتُ أنني قد كنت محقًّا عندما قلت إن مُحيَّاك كالشمس.. بل إنه هو الشمس المشرقة ذاتها التي تمنح عالمنا الضوء والدفء والحياة..

فتاتي الجميلة الطيبة.. أنا أسعد إنسان في هذا العالم، لأني صرت جزءًا، ولو بسيطًا من عالمكِ الجميل الرائع.. أني قد أسبغتَ بعض السعادة على لحظاتكِ..

طفلتي؛ إني لكِ للأبد.. إني من رحمكِ جئتُ، ولأجلكِ أحيا، ومنكِ تفيض روحي تسامحًا وجمالاً..

إن قصصنا كثيرة؛ كما هي قصص الآخرين.. ولكن، ومهما تباينت الأحداث والمآلات فيها؛ فإنه لابد دائمًا من نهايات لكل قصة، ولابد دائمًا من قصة أخيرة..

ولكنكِ، سوف تظلين أعظم القَصَص، وآخرها.. مهما تباعدنا يا فتاتي الصغيرة.. سوف أظل على عهدٍ قديم؛ دوَّنْتَه على جداريات حياتي منذ سنين؛ فلا يبلى أبدًا!.

إن قيمتك وعظمتكِ، فيما منحتَني إياي من مشاعر، وما ألهمتينيه من كلمات.. لذلك تبقين وتجربتك أبدًا خالدتَيْن خلود برءاتك وعذب نبرات صوتك، جليلتَيْن؛ جلال عينَيْك وكبرياء الجبين الوضَّاء"..

القاهرة في:

الأحد ١٦ سبتمبر ٢٠١٨م

تم بحمد الله تعالى وفضله..؛؛

